سلسلة الخلفاء

هارون الواثق
و
جعفر المتوكل

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

سلسلة الخلفاء

٢٦-٢٧



محمود شاكر

المكتب الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

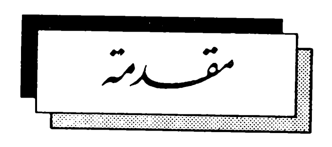
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين، وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى آله وصحبه الطاهرين *أما بعد* :

فإن للأُمّة الإسلامية مُهمّةً أساسيةً في الحياة وهي دعوة الناس للإسلام في سبيل هدايتهم إلى معرفة الخالق وعبادته، وأخذهم إلى طريق الحقّ والعدل والأمن، وإبعادهم عن عبادة الطغيان، وعن السير في درب الباطل والظلم والفوضى، ولا بُدّ من قتال الذين يقفون في وجه هذه الدعوة والجهاد في سبيل ذلك حتى يُسلموا أو يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون إن كانوا من أهل الكتاب ومن يلحق بهم من مجوسٍ، أو يرحلوا إن كانوا وثنيين، ولكن رحيلهم لا يُنقذهم إذ يُتابعهم المسلمون أينما ذهبوا في الأرض لأن الجهاد مستمرّ حتى يعمّ الإسلام الأرض جميعها.

وعلى خليفة المسلمين أن يُعدّ الإعداد اللازم للجهاد فيُهيئ السلاح، ويُجهّز العتاد، ويُعدّ الرجال

مادياً ومعنوياً، وأن يسير في مقدمة المجاهدين أو يبعث من ينوب عنه ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1]. وما دام الجهاد هو مهمّة الأمة الأساسية، وما دام الخليفة هو أمير الأمة لذا كان عليه تنفيذ مهماتها وعلى كاهله تقع مسؤولية الجهاد، وهذا ما كان ظاهراً على الخلفاء الأوائل والذين عاشوا في القرن الهجري الأول عامةً، ثم خفّ الأمر تدريجياً، وخفّت معه مكانة الخليفة.

وعندما تنطلق جيوش المجاهدين تنطلق معهم قلوب الذين يبقون في الديار، فما من بيتٍ إلا وخرج منه مجاهد، فهم أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم، وفوق هذا فهم إخوتهم في الإسلام وقد خرجوا يُؤدّون مهمة الأمة بأمر الله، وانطلقوا يُدافعون عنهم، وساروا يذبّون عن الإسلام وأهله، لذا خرجت القلوب معهم، وكانت العقول تُفكّر بهم، والألسن تلهف بذكرهم، والآذان تتلقف أخبارهم، إنهم خرجوا بأمر الله، يطلبون الشهادة ويبغون الجنّة، فيا سعادة من يفوز، ويا رِبْحَ من يصدق.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

ويلتقي المجاهدون مع الذين خرجوا لهم فيعرضون عليهم الإسلام أو الجزية إن كانوا من أهل الكتاب أو من يلحق بهم أو السيف، وإن لم يكونوا من هذه الفئة فليس لهم سوى الإسلام أو السيف حتى يحكم الله بينهم، فإن قبلوا الإسلام كانوا إخوةً لمن سبقهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا من أهل الكتاب ورضوا بالجزية رُفع عنهم السيف، وأصبحوا في ذِمّة الله ورسوله، وعاشوا في ذِمّة المسلمين وحمايتهم بأمنٍ وسلامٍ وطمأنينةٍ وراحةٍ، لهم حقوق وعليهم واجبات لا يصحّ إغفالها، ولا يجوز إهمالها. وإن لم يقبل الأعداء عرض المسلمين الأول ولا الثاني كان السيف هو الحكم.

يُنازل المسلمون أعداءهم، وما هي إلا جولة حتى يُولّيَ الأعداء الأدبار، ويُحرز المسلمون الانتصار حيث لا يثبت عدوّ أمام جند الله ما دام القتال جهاداً، وفيه الإخلاص لله، وفيه الصدق مع الله، وغاية المجاهد الشهادة، وإذا كان طلب الموت غايةً فأيّ شيءٍ يهابه المسلم، وأيّ عدوٍّ يخافه، وأيّ مشهدٍ يرهبه، وأيّ نزالٍ يخشاه، على حين أن الكافر يطلب الحياة ويرغب في النجاة فيفرّ أمام البطل المغوار، والمجاهدون كلهم أبطال مغاوير، ويهرب الخصم من كل فارسٍ مقدام،

والمجاهدون كلهم فرسان مقاديم، وينهزم العدوّ أمام المجاهد المشهور بقوته، والمجاهدون كلهم ذوو هيبةٍ في نفوس أعدائهم، ولهم رهبة عند كل من نازلهم، أو اشتبك معهم في قتالٍ. لذا كانت نتيجة المعركة معروفةً، ومصير اللقاء محسوماً، وهو فرار الكفار دون أن يلي أحدهم على شيءٍ، أو أن يتفقّد أقرب الناس إليه، ونصر المسلمين، وتقدّمهم في أرض عدوّهم، وحيازتهم على غنائم، وأخذهم الأسرى، وحصولهم على السبي.

يرجع المسلمون فائزين غانمين تتقدّمهم الغنائم أحمالاً، ويسير السبيّ أمامهم أرتالاً، ويصل المجاهدون إلى قاعدة ديار الخلافة، ويكون الاستقبال تتقدّمه بشائر بل بشارة على استقامة الخلافة، وعدل سلطانها، وطاعة أهلها، وتطبيق شرعها ودلالة ذلك نصر الله لمجاهديها. ومن فقد أحبته فلم يرجعوا اغرورقت عيناه بالدموع فرحاً بوصولهم لمبتغاهم، وفوزهم بالجنّة، ونوالهم النعيم المقيم، وذلك غاية كل مسلمٍ، وإن وُجد غريب أو جاهل ظنّ أن تلك الدموع هي دموع الأسى والحزن لفقد القريب وغياب الحبيب. وأما الذين عاد أهلوهم المجاهدون فيستقبلونهم بإشراقةٍ غامرةٍ، وابتسامةٍ ساحرةٍ، وفرحةٍ عامرةٍ على النصر الذي

أحرزوه والعودة إلى الأحبّة وإن كان في النفوس شيء، عن صدقهم في الجهاد على الأقل أمام أهالي الشهداء، فهنيئاً لمن أبلى وفاز، وهنيئاً لمن أبلى وانتصر، وهزم خصمه ودحر، ورجع بالغنائم ومن أسر.

ويستمع الناس من المجاهدين الذين رجعوا إلى ديارهم عن أخبار الجهاد وما حدث من بطولاتٍ، وعن أنباء الأبطال وما أجادوا من ضرباتٍ، وعن القادة وما أحسنوا من تصرّفاتٍ لهم تجاه الأعداء، وعن أحداث الخصم وما أصابهم من رهبةٍ عند اللقاء، وعن رجالات العدوّ وما لحقهم من ذعرٍ، وعن فرارهم وما نالهم من ذلٍّ، وتشيع هذه الأخبار في المجتمع، ويتناقلها الأهالي، ويستمرّ تداولها حتى يتحرّك الناس للجهاد مرةً ثانيةً.

وإضافةً إلى أخبار الجهاد التي ذكرنا نرى شباباً ناشئاً يعدّ نفسه للمشاركة في الجهاد في أول مسيرةٍ للجهاد تنطلق، ويذهب أحدهم إلى القادة يرجو منهم السماح له بالمسير إلى الجهاد، وقد غدا شاباً قوياً، وعنده مهارات في القتال، وأساليب في الدفاع، وقدراتٍ على الضرب، وإمكانات على الطعن، وإجادة بالرمي، كما يرجو منهم عدم حرمانه الأجر وقد أصبح قادراً، ويجب عليه النفير. كما نرى ذاك الذي يَعِدُ نفسه

إن لقي العدوّ أن يفعل كذا وكذا، وليجدنّ العدوّ منه ما لم يجد من غيره. ثم نرى ذاك الذي يدعو ربّه أن يرزقه الشهادة و. . . . فكل حديثٍ عن الجهاد عما جرى وعما سيقع، ولا حديث سوى ذلك، وإن وُجد فلا يُلتفت إليه ولا يُهتمّ به. كان ذلك في عصر الخلفاء المجاهدين الذين همّهم الدعوة، وشُغلهم الجهاد في سبيل الله.

أزهرت الحياة الدنيا للمسلمين بعد صدقهم مع الله، وإخلاصهم في عملهم لله، وتضحيتهم مجاهدين في سبيل الله، وكان هذا الازهرار جزاءً لما عملوا وامتحاناً وابتلاءً، وقد نجح كثيرون فأخذوا قدر كفايتهم، وساروا في طريق العلم وتابعوا العمل في الدعوة، وحثّوا على الجهاد، وإذا كان النفير كانوا في مقدمة المجاهدين، وفي الوقت نفسه قصّر كثيرون فنهموا من الدنيا فوق طاقتهم، وعبّوا من نعيمها أكثر من حاجتهم، ونهلوا من معينها زيادةً عن كفايتهم، فترهّلت أجسامهم، وفترت هِممهم، وزادت التفاتتهم إلى النعيم، فمرحوا، وتراخوا عن الجهاد، فضعف أمره.

ومع ضعف الجهاد قلّ الحديث عنه بطبيعة الحال ما دام غير موجودٍ، وتشعّبت آراء الناس، ووجد المتلوّنون المجال أمامهم مفتوحاً لبثّ الأراجيف، ودسّ

الدسائس، ونشر الشائعات، وما دام النفير للجهاد غير قائمٍ فأي عملٍ بقي للخليفة، ومن هنا كان مدخل المتلوّنين فروّجوا الكلام عن مجالس الطرب وأكثروا، وعن المغنيّات وأطنبوا، وعن الغلمان وزادوا، وعن الخمريات وتفنّنوا، وعن المحرّمات ولم يخجلوا، وألصقوا كل هذا بالخلفاء، وصار الخلفاء في هذه المرحلة وربما قبلها بقليلٍ صورةً عن شرار الخلق، وهذا ما يهدف إليه المتلوّنون؛ فالخلفاء أمراء المسلمين وسادتهم فهذه حالتهم، ولعنة الله على الكاذبين.

وإن أغلب ما بثّه المتلوّنون في الكتب، ومعظم ما أشاعوه ودُوّن، وكل ما دسُوه وسُجّل إنما هو عارٍ عن الصحة صاغوه من زورٍ ومن كذبٍ للطعن في الإسلام وخلفائه ورجالاته وأعلامه، وللتشكيك في التاريخ الإسلامي، وفي المبادئ، وفي الأمجاد، وكان الجهاد هو الذي يُشغل الناس عن السماع لهذه الأكاذيب والافتراءات والإشاعات والادعاءات، وربما كان سير المعتصم لغزو الروم سنة ٢٢٣هـ وما حقّقه من فتح عمورية مثلاً جيداً لما نقول، إذ شُغل الناس سنواتٍ في هذا الفتح الجليل. إذن كان للجهاد أثر واضح في عدم انتشار افتراءات المتلوّنين وأكاذيبهم، فلما ضعُف أمر الجهاد أخذت الافتراءات تكثر وتنتشر.

لم يمضِ قرن على قيام الدولة العباسية حتى ضعُف الجهاد إذ انصرف الخلفاء إلى قمع حركات المتلونين وضرب فتنهم، وإن كان هذا جهاداً غير أنه محليّ لا يكفي لتطلّعات المسلمين فأخذت أكاذيب المتلوّنين تظهر، وادعاءاتهم تُحرّر، وبدا الخطر على التاريخ الإسلامي واضحاً.

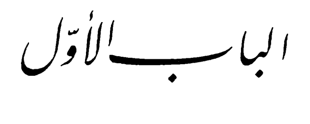
منذ أن توقّف الجهاد أخذت أكاذيب المتلوّنين على الخلفاء تُلصق بهم وتُدوّن لدرجةٍ لا يقبلها صاحب عقلٍ ولا يصدّقها مسلم، فنرجو أن نستطيع تقديم صورةٍ صادقةٍ عن الخلفاء بعيدةٍ عن افتراءات المتلوّنين، وإن كان قد ذكرها مؤرخون ثقات إذ كانوا يُسجّلون كل ما يصل إليهم، لكن صعُب عليّ أن أُسجّل أخباراً كاذبةً واتهاماتٍ باطلةً فأنا أتوخّى الصدق بالخبر، وأتحرّى ما يقبله العقل.

أرجو أن يكون عملي خالصاً لله، وأدعو ربي أن يوفّقني إلى ذلك، وإلى ما يحبّ ويرضى فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرّة جمادى الأولى ١٤٢١هـ.

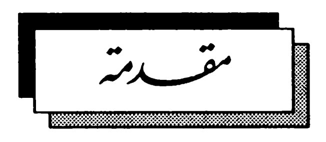
الأول من شهر آب ٢٠٠٠م.

محمود شاكر



٢٦
الخليفة
هارون الواثق

٢٢٧-٢٣٢ هـ



الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن المسلمين لم ينفروا للجهاد أيام خلافة الواثق بالله بن المعتصم بالله مما فتح المجال للناس أن يخوضوا في موضوعاتٍ شتّى، وأن يتحدّثوا عن الخلافة ومقرّها وما يجري فيه، وفي الوقت نفسه فُتحت الأبواب للمتلوّنين أن يتكلموا عن الخليفة، ويفتروا الكذب عليه لتقلّ هيبة الخلافة في نظر العامة، وتضعُفُ نظرة المسلمين للخليفة وهو أميرهم إمامةً وقيادةً، وإذا حدث ما يُخطّط له المتلوّنون تجرّأ الناس على الخليفة، وكثر اللغط، وطمع الأعداء بالمسلمين، وربما قام الروم بهجومٍ على ديار الإسلام، وتوانى المسلمون في النفير للجهاد، وربما هُزم المسلمون لضعف معنوياتهم وقلّة أعدادهم، وعندها ينهض المتلوّنون صراحةً ويُعيدوا لشعبهم دولة أسلافهم ولمعتقداتهم الجاهلية شعلة نارهم ـ حسبما يحلمون ـ.

لقد نسب المتلوّنون للواثق أعمالاً لا يقوم بها أكثر الناس بُعداً عن الإسلام، ولا يأتيها أقلّ الناس حياءً، أعمالاً لا يقبلها عاقل، ولا يُصدّقها مسلم، ومع ذلك راجت ودوّنت وبقيت مع الزمن ملتصقةً بخليفةٍ للمسلمين، فعلى أيّ مستوىً خلفاء هؤلاء المسلمين! هؤلاء أمراء المسلمين، الذين يدّعون الحق، ويتكلّمون بالعدل، ويتحدّثون بالأخلاق، وينصبون أنفسهم هُداةً للناس!! وبهذا تضعُفُ هيبة المسلمين، ولا يبقى لهم وزن في التاريخ، وتذهب ريحهم و.... وهذا ما يهدف إليه المتلوّنون.

ونرجو أن نستطيع إعطاء صورةٍ صحيحةٍ عن الخلفاء لا نهضم حقهم، ولا نرفع شأنهم بل نُنْزِلهم قدرهم بما قدّموا وأعطوا، أو زلّوا وأهملوا، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأول

الواثق قبل الخلافة

وُلد هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله على طريق مكة لعشرٍ بقين من شعبان سنة ستٍ وتسعين ومائة في خلافة عمّه محمد الأمين بن هارون الرشيد. ولم يتجاوز أبوه المعتصم السابعة عشرة من العمر بعد.

وأُمّ الواثق أُمّ ولدٍ روميةٌ تُدعى «قراطيس»، وفي السنة الأولى من خلافة ابنها، وهي سنة ٢٢٧هـ، حجّ بالناس جعفر المتوكل بن المعتصم أخو ولدها الخليفة الواثق فخرجت معه للحج، فأدركتها المنيّة وهي بالحيرة لأربعٍ خلون من ذي القعدة، ودُفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى.

وقُتل عمه محمد الأمين سنة ١٩٨هـ، وعُمْرُ الواثق لم يتجاوز السنتين لذا لم يُدرك الفتنة التي وقعت بين عمّيه الأمين والمأمون، والصراع الذي وقع بينهما

والذي انتهى بمقتل عمّه الأمين، وبيعة عمّه المأمون بالخلافة.

انتهت الفتنة، وهدأت الأوضاع، واستقرّت الأمور في عهد المأمون فلم يستفد الواثق من مراقبة الأحداث وقد غدا شاباً، ولم يأخذ دروساً وعبرةً من تحرّك مثيري الفتن. وفي الوقت نفسه كان أبوه المعتصم كثير الانتقال، كثير الأسفار فلم ينتفع الواثق من خبرة أبيه وما أفاد من متابعة حركات المتلوّنين إذ لم يكن بجانبه كبير وقتٍ يُحدّثه، ويُوجّهه، ويُنبّهه إلى مجريات الأحداث، إذ كان المعتصم مُراقباً للأوضاع مُتابعاً لحركات المتلوّنين، وبذا خسر الواثق معرفة أبيه من تجارب الأيام.

وآلت الخلافة إلى محمد المعتصم والد هارون الواثق سنة ٢١٨هـ، فكان الواثق قد بلغ الثانية والعشرين من العمر، وبدأت مرحلة الرجولة من حياته، وفكّر أبوه باستخلافه من بعده فهو أكبر بنيه، وتبدو عليه ملامح الأهلية، وعنده التفكير في ذلك فأبوه الخليفة، وهو أكبر أبنائه.

أراد المعتصم تدريب ولده غير أن فِتن المتلوّنين قد شغلته عن ذلك، ثم كانت حركاتهم التي كانت منها

الخرّميّة قد حالت دون الانصراف إلى ابنه، إضافةً إلى ما جاء مع الأتراك من مشكلاتٍ نتيجة خوف المتلوّنين وسوء تصرّف القادمين الذين يشعرون أنهم رجال الخليفة ومواليه.

ولما خرج المعتصم إلى سامراء سنة ٢٢٠هـ استخلف ابنه هارون الواثق على بغداد ثقةً به، وتدريباً له على الإدارة.

الفصل الثاني

خلافة هارون الواثق

توفي محمد المعتصم يوم الخميس لسبع عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، وكان قد بويع لولده هارون الواثق يوم الأربعاء لثمانٍ خلون من شهر ربيع الأول من السنة نفسها أي قبل وفاة أبيه بتسعة أيامٍ، ثم جُدّدت له البيعة يوم وفاة أبيه.

وجاء موسم الحج سنة ٢٢٧هـ، فخرج من سامراء جعفر المتوكل على الله أخو الخليفة الواثق بالله، وهو أصغر منه بتسع سنواتٍ حيث كانت ولادته سنة ٢٠٥هـ، خرج ليقيم للناس الحج، وخرجت معه أم أخيه الخليفة الواثق فتوفيت بالطريق في الحيرة.

وقدّم الواثق القائد أشناس على بقية القادة، وألبسه وشاحين مرصّعين بالجوهر في شهر رمضان سنة ٢٢٨هـ. وكان على الموسم محمد بن داود، وكان يوم

عرفة (٩ ذي الحجة) قد صادف التاسع عشر من شهر أيلول سنة ٨٤٢ ميلادية، وشهر أيلول نهاية فصل الحرّ، ويكون يوم ١٩ أيلول قبل انتهاء فصل الصيف بأربعة أيامٍ، فجاءت أيام حرٍّ شديدٍ أثرت على الحجّاج، وأعقبتها أمطار غزيرة بدءاً من يوم النحر (العاشر من ذي الحجة) ورافقت الأمطار موجة بردٍ قارسةٍ مما أضرّ بالحجاج تعاقب الحرّ والبرد، ومع المطر انهارت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة، وقتلت عدداً من الحجاج، وكانت أخبار موسم هذا العام حديث الناس عند عودة الحجاج إلى بلدانهم.

وسجن الواثق بعض الكتّاب سنة ٢٢٩هـ، وألزمهم بدفع الأموال وذلك عندما بلغه أن هؤلاء الكتّاب أصبحت عندهم أموال كثيرة، وأنها قد آلت إليهم بصورةٍ غير شرعيةٍ.

وولي أمر المدينة المنورة محمد بن صالح بن عبد الله[1] سنة ٢٢٩هـ.

---

(١) محمد بن صالح بن عبد الله الطالبي: أمير، من الشعراء النبلاء، ولي المدينة للواثق سنة ٢٢٩هـ، وعزله المتوكل، فخرج عليه مع جماعةٍ، فلم يزل المتوكل يحتال عليه إلى أن أمسكه سنة ٢٤٠هـ، وسجنه بسامراء ثلاث سنواتٍ، وأطلقه، =

ولما لم يكن هنالك جهاد فقد حدثت بعض التعدّيات من بعض الأعراب، ومنها ما وقع في المدينة المنورة، حيث أخذ بنو سُليم يتمادون على الناس حول المدينة، وقد يدخلون الأسواق، ويقع منهم الأذى فيها، وقد هجموا على جماعةٍ من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين، وكان رأسهم عُزيزة بن قطّاب السُّلميّ، فوجّه إليهم أمير المدينة محمد بن صالح رجلاً هو حمّاد بن جرير الطبري، وجّهه مسلحةً للمدينة حتى لا يطرقها الأعراب ليلاً، غير أن حمّاداً سار في جماعةٍ من الجند ومن تطوّع للخروج معهم من قريشٍ والأنصار ومواليهم وغيرهم من أهل المدينة، فسار إليهم فلقيته طلائعهم. وكانت بنو سُليم كارهةً للقتال، فأمر حمّاد بن جرير بقتالهم، وحمل عليهم بموضعٍ يُقال له «الرُّوَيْثة» من المدينة، غير أن بني سُليم قد جاءهم مدد من باديتهم خمسمائة رجلٍ، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت جماعة من أهل المدينة، وثبت حمّاد وأصحابه وقريش والأنصار، ودارت عليهم الدائرة فقُتل

= فأقام فيها إلى أن مات سنة ٢٤٨هـ أي بعد مقتل المتوكل بسنةٍ، وقيل: كان راويةً أديباً شاعراً.

حمّاد وعامة أصحابه ممن ثبت معه، وغلُظ أمر بني سُليم واستباحوا ما بين مكة والمدينة، وجاروا على من يليهم من القبائل.

وجّه الواثق إلى بني سُليم بُغا الكبير أبا موسى التركي فقدم المدينة في شعبان سنة ثلاثين ومائتين وانطلق إلى حَرّة بني سُليم، فلقيهم ببعض مياه الحَرّة لأيامٍ بقين من شعبان قرب قرية «السوارقية» وهي قريتهم التي كانوا يأوون إليها، وهي مجموعة حصونٍ فقتل منهم بُغا ما يقرب من خمسين رجلاً، وأسر مثلهم، وانهزم الباقون، وانكشف بنو سُليم لذلك، ودعاهم بُغا بعد الوقعة إلى الأمان على حكم أمير المؤمنين الواثق، وأقام بـ«السوارقية» فأتوه، واجتمعوا إليه، وأخذ من جمعت السوارقية من أفناء الناس، وهربت خفّاف بني سُليم إلا أقلّها، وهي التي كانت تؤذي الناس، ثم احتبس عنده من وُصف بالشرّ والفساد، وهم زهاء ألف رجلٍ، وخلّى سبيل سائرهم، ثم رحل عن السوارقية بمن صار في يده من أسارى بني سُليم ومستأمنيهم إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين ومائتين فحبسهم فيها. ثم انطلق إلى مكة حاجاً، فلما انقضى الموسم سار إلى «ذات عرق» ووجّه إلى بني

هلال من عَرَض عليهم مثل الذي عرض على بني سُليم، فأقبلوا فأخذ من مَرَدَتهم وعُتاتهم نحواً من ثلاثمائة رجلٍ، وخلّى سائرهم، ورجع من ذات عرق، فسار إلى مكة فاعتمر في شهر المحرم، وعاد إلى المدينة، فجمع كل من أخذ من بني هلال، واحتبسهم عنده مع الذين كان أخذهم من بني سُليم، وجمعهم جميعاً في دار يزيد بن معاوية في الأغلال والقيود، وكانت بنو سُليم حُبست قبل ذلك بأشهرٍ.

اتّجه بُغا إلى بني مرّة، وفي حبس المدينة نحو من ألفٍ وثلاثمائة رجلٍ من بني سُليم وبني هلال، فنقبوا الدار ليخرجوا، فرأت امرأة من أهل المدينة النقب، فاستصرخت أهل المدينة فجاءوا، فوجدوهم قد وثبوا على الموكّلين بهم، فقتلوا منهم رجلاً أو رجلين، وخرج بعضهم أو عامّتهم، فأخذوا سلاح الموكّلين بهم، واجتمع عليهم أهل المدينة ومنعوهم من الخروج، وباتوا محاصريهم حول الدار حتى أصبحوا، وكان وثوبهم عشية يوم الجمعة، وذلك أن عُزيزة بن قطّاب قد قال لهم: إني أتشاءم بيوم السبت. ولم يزل أهل المدينة يتناوبون قتالهم، فقاتلتهم بنو سُليم، فظهر عليهم أهل المدينة وقتلوهم جميعاً، بل وقُتل من وُجد من الأعراب

في أزقّة المدينة. وكان بغا غائباً عنهم، فلما قدم وجدهم قتلى.

وكان سبب غياب بُغا عنهم أنه توجّه إلى «فَدَك» لمحاربة من فيها ممن كان تغلّب عليها من بني مرّة وبني فزارة، فلما شارفهم وجّه إليهم رجلاً من فزارة يعرض عليهم الأمان، ويأتيه بأخبارهم، فلما قدم عليهم الرجل الفزاريّ حذّرهم سطوته، وزيّن لهم الهرب، فهربوا نحو البادية، وبقي نفر منهم في فَدَك. وكان بُغا قد ظفر بنفرٍ منهم كانوا قد توجّهوا نحو «خيبر» و«جنفاء» كما كان قد استأمن بعضهم، أما الباقون فقد هربوا نحو «البلقاء» من بلاد الشام. وأقام بُغا بـ«جنفاء» وهي قرية من حدّ بلاد الشام مما يلي الحجاز نحواً من أربعين ليلةً، ثم انصرف إلى المدينة بمن صار في يديه من بني مُرّة وفزارة.

وجّه بُغا إلى بطونٍ من غطفان، وفزارة، وأشجع، وبني ثعلبة رجالاً فجاءه جماعة منهم سنة ٢٣١هـ، فلما وصلوا إليه أمر محمد بن يوسف الجعفريّ فاستحلفهم الأيمان الموكّدة ألا يتخلّفوا عنه متى دعاهم، فحلفوا. ثم شخص إلى «ضَرِيَّة» لطلب بني كلاب، ووجّه إليهم رسله، فاجتمع إليه منهم نحو من

ثلاثة آلاف رجلٍ، فاحتبس منهم من أهل الفساد نحواً من ألفٍ وثلاثمائة رجلٍ، وخلّى سائرهم، ثم قدم بهم المدينة في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فحبسهم في دار يزيد بن معاوية، ثم شخص بُغا إلى مكة وأقام بها حتى شهد الموسم، ثم رجع إلى المدينة فلما وصل إليها أرسل إلى من كان استحلف من ثعلبة، وأشجع، وفزارة، وغطفان فلم يجيبوه، وتفرّقوا في البلاد، فوجّه في طلبهم فلم يأته أحد.

أُخبر الواثق أن بني نمير يُفسدون في الأرض، ويُغيرون على الناس، وعلى بلدان اليمامة، فكتب الواثق إلى بُغا يأمره بالمسير إليهم. فسار إليهم وأخذ معه محمد بن يوسف الجعفريّ دليلاً له على الطريق، فمضى نحو اليمامة يريدهم، فالتقى بجماعةٍ منهم بموضعٍ يقال له «الشُّريف» فحاربوه فقتل منهم أكثر من خمسين رجلاً، وأسر نحواً من أربعين، ثم سار إلى بلدة لبني تميم من عمل اليمامة، وهي «مرات» فنزل بها، ثم تابع إليهم رسله، يعرض عليهم الأمان، ودعاهم إلى السمع والطاعة، وهم في ذلك يمتنعون عليه، ويشتمون رسله، ويتفلّتون إلى حربه، حتى كان آخر من وجّه إليهم رجلين، أحدهما من بني عديٍّ من

تميمٍ والآخر من بني نُميرٍ من تميمٍ، فقتلوا الذي من بني عديّ، وأثبتوا النميريّ جراحاً، فسار إليهم بُغا من «مرات»، وكان مسيره إليهم في أول صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وسار حتى دخل «نُخيلة». وأرسل إليهم أن ائتوني، فأبوا أن يأتوه، فأرسل إليهم سريةً فلم تدركهم، فوجّه سرايا، فأصابت فيهم، وأسرت منهم، ثم إنه أتبعهم بجماعةٍ ممن معه وهم نحو من ألف رجلٍ، فلقيهم وقد جمعوا له، وحشدوا لحربه، وهم يومئذٍ نحو من ثلاثة آلافٍ بموضعٍ يُقال له «روضة الأبان» فهزموا مقدمته، وكشفوا ميسرته، وقتلوا من أصحابه ما يقرب من مائةٍ وثلاثين رجلاً، وعقروا من إبل عسكره ما يقرب من سبعمائة بعيرٍ ومائة دابةٍ، وانتهبوا الأثقال وبعض ما كان مع بُغا من الأموال. ولم تزل الهزيمة على بُغا وأصحابه منذ غدوة إلى انتصاف النهار، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ثنتين وثلاثين ومائتين، ثم تشاغل بنو نُميرٍ بالنهب وعقر الإبل والدواب حتى ثاب إلى بُغا من كان انكشف من أصحابه، واجتمع إليه من كان تفرّق عنه، فكرّوا على بني نميرٍ فهزموهم وقتلوا منهم منذ زوال الشمس إلى وقت العصر زهاء ألف وخمسمائة رجلٍ. وأقام بُغا بموضع الوقعة على الماء المعروف

بـ«بطن السر»، فاستراح هو وأصحابه ثلاثة أيامٍ.

وإن بعض من هرب من فرسان بني نمير من الوقعة أرسلوا إلى بُغا يطلبون منه الأمان، فأعطاهم الأمان، فصاروا إليه، فقيّدهم وأشخصهم معه. وسار بُغا من موضع الوقعة في طلب من شذّ عنه منهم، فلم يدرك إلا الضعيف ممن لم يكن له نهوض منهم وبعض المواشي والنعم، ورجع إلى حصن باهلة. وإن الذين أُعطوا الأمان من بُغا من بني نميرٍ وقيّدهم وحملهم معه قد شغبوا أثناء الطريق، وحاولوا كسر قيودهم والهرب، فأمر بضربهم.

وقدم على بُغا مدد له واجن الأشروسنيّ الصغديّ في سبعمائة رجلٍ فوجّهه بُغا ومحمد بن يوسف الجعفريّ في أثر الهاربين، فلم يزل يتبعهم حتى وغلوا في البلاد، وصاروا بـ«تبالة» وما يليها من حدّ عمل اليمن وفاتوه، فانصرف ولم يستطع أن يقبض إلا على سبعة رجالٍ منهم.

أقام بُغا بحصن باهلة، ويوجّه السرايا لمحاربة من امتنع عن طلب الأمان، فقتلوا جماعةً وأسروا جماعةً، وأقبل عدد من ساداتهم وكلهم يطلب الأمان لنفسه وللبطن الذي هو منه، فقبل ذلك منهم وآنسهم، ولم

يزل مقيماً إلى أن جمع إليه كل من ظنّ أنه كان في هذه النواحي منهم، وأخذ منهم زهاء ثمانمائة رجلٍ، فأثقلهم بالحديد وحملهم إلى البصرة، وذلك في ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وكتب إلى صالح العباسيّ بالمسير بمن قِبله في المدينة من بني فزارة ومُرّة، وثعلبة وغيرهم واللحاق به، فوافاه صالح ببغداد، وساروا جميعاً إلى سامراء في المحرم سنة ثلاثٍ وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل على الله، وكان عدد من قدم به بُغا وصالح من الأعراب سوى من مات منهم، ومن هرب، ومن قُتل في تلك الوقائع ألفاً ومائتي رجلٍ من بني نميرٍ، وبني مرة، وفزارة، وثعلبة، وطيٍّ، وكلابٍ.

وفاة عبد الله بن طاهر:

كان عبد الله بن طاهر صاحب الحرب والشرطة، ووالياً على خراسان وأعمالها، والريّ، وطبرستان وما يتصل بها، وكرمان، وسواد العراق، وبيده خراج هذه الأعمال كلها، وقد توفي بـ«نيسابور» يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين ومائتين، فولّى الواثق مكانه ابنه طاهر بن عبد الله بن طاهر.

وكانت وفاة عبد الله بن طاهر بعد وفاة القائد أشناس التركي بتسعة أيامٍ.

الفداء بين المسلمين والروم:

تقاعس المسلمون في مهمتهم التي أُنيطت بهم، وهي الدعوة إلى الإسلام، والعمل على نشره في الأرض فلم يخرجوا للجهاد، وكانت هيبتهم كبيرةً في نفوس الروم فلم يجرؤ الروم على القيام بحرب المسلمين، كما هلك ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل سنة سبعٍ وعشرين ومائتين بعد أن حكم الروم اثنتي عشرة سنةً، فتولّى أمر الروم بعده امرأته «تذورة» وابنها ميخائيل بن تيوفيل لا يزال صبياً، وهذا ما ساعد أيضاً على عدم قيام قتالٍ بين الطرفين.

وما دامت الحرب لم تقع مدةً فقد هدأت الأوضاع ولانت النفوس ومالت إلى الدعة وأخذ يُراودها التفكير بالأسرى الموجودين عند الجانبين، وصدف أن جاء إلى سامراء خاقان الخادم ـ خادم الرشيد، وكان قد نشأ بالثغر ـ فقدم ومعه وجوه من أهل طرسوس وغيرها يشكون صاحب مظالم كان عليهم، ويكنى أبا وهبٍ، وقابلوا الخليفة الواثق، فأحالهم إلى

محمد بن عبد الملك، فأُحْضِر أبو وهبٍ، ولم يزل محمد بن عبد الملك يجمع بينه وبينهم في دار العامة عند انصراف الناس يومي الاثنين والخميس، فيمكثون إلى وقت الظهر، وينصرف محمد بن عبد الملك وينصرفون. فعُزل أبو وهبٍ عن المظالم في الثغور وعُيّن مكانه غيره.

وبهذه المناسبة أمر الواثق بامتحان أهل الثغور بـ«بدعة خلق القرآن» فأجابوا جميعاً بما يريد، وقالوا بخلق القرآن سوى أربعة نفرٍ فأمر الواثق بضرب أعناقهم. كما أمر بجوائز لأهل الثغور جميعاً برأي خاقان الخادم ما داموا على رأيه، ومال بفكره نحوهم، وتعجّل أهل الثغور إلى ثغورهم، وتأخّر خاقان الخادم بعدهم قليلاً، فقدم على الواثق رسل صاحب الروم ميخائيل بن تيوفيل بن ميخائيل بن اليون بن جورجس يسأله أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين، فوجّه الواثق خاقان الخادم في ذلك.

خرج خاقان الخادم ومن معه في فداء المسلمين في آخر سنة ثلاثين ومائتين على موعد بينهم وبين رسل صاحب الروم للالتقاء للفداء في اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ثم عقد الواثق

لأحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء. وكان الرسل الذين قدموا في طلب الفداء قد جرى بينهم وبين محمد بن عبد الملك ابن الزيات اختلاف في الفداء، إذ قالوا: لا نأخذ في الفداء امرأةً عجوزاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا صبياً، فلم يزل ذلك بينهم أياماً حتى رضوا عن كل نفسٍ بنفسٍ.

كان عدد الأسرى المسلمين في بلاد الروم أربعة آلافٍ وأربعمائةٍ وستين نفساً، النساء وأزواجهنّ وصبيانهنّ ثمانمائةٍ، وأهل الذِّمّة مائة أو أكثر قليلاً.

وجّه الواثق إلى بغداد والرقة في شراء من يُباع من الرقيق من مماليك من أصلٍ روميٍّ، فاشترى من قدر عليه منهم، فلم يتمّ العدد، فأخرج الواثق من قصره من النساء الروميات والعجائز وغيرهن حتى تمّ العدد، وأصبح زيادةً على عدد الأسرى المسلمين.

وجاء الموعد المحدّد وهو العاشر من المحرم من سنة ٢٣١هـ، فاجتمع المسلمون وعددهم أربعة آلافٍ بين فارسٍ وراجلٍ، وجاء الروم ومعهم قائدان من قادتهم، وكان اللقاء على نهر اللامس (سيحان) فوقف المسلمون من جانب النهر الشرقي، ووقف الروم من

الجانب الغربي ـ وهو مخاضة ـ فكان هؤلاء يرسلون من ها هنا رجلاً وهؤلاء من ها هنا رجلاً، فيلتقيان في وسط النهر، فإذا صار المسلم إلى المسلمين كبّر وكبّروا، وإذا صار الروميّ إلى الروم تكلّم بكلامهم، وتكلّموا شبيهاً بالتكبير.

وكان الفداء في أربعة أيامٍ، وبقي عدد كبير مع خاقان الخادم من الروم الذين كان أمير المؤمنين قد أعدّهم لفداء المسلمين، فأعطى خاقان الخادم لصاحب الروم مائة نفسٍ زيادةً ليكون للمسلمين الفضل على الطرف الآخر، وردّ الباقين إلى طرسوس فباعهم.

كان الواثق قد بعث مع وفد المفاداة أحمد بن أبي دؤاد ومعه رجلان هما يحيى بن آدم الكرخي، ويُكنى أبا رملة، وجعفر بن الحذاء، ووجّه معهما كاتباً من كتّاب العَرْض يقال له: طالب بن داود وأمره بامتحان أسرى المسلمين هو وجعفر بموضوع خلق القرآن. فلما صار الأسرى في أيدي المسلمين امتحنهم جعفر ويحيى فأجابوا كما يريد أحمد بن أبي دؤاد، وأُعطي كل من أجاب بالإيجاب دينارين.

لما التقى المسلمون والروم للفداء خاف الروم لقلّتهم وكثرة المسلمين فآمنهم خاقان الخادم من ذلك،

وجعل عهداً معهم لمدة أربعين يوماً لا يكون فيها غزو حتى يعودوا إلى بلادهم ومأمنهم.

ولما انقضت الأربعون يوماً مدة الهدنة غزا أمير الثغور أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة بلاد الروم، فجاءت أيام مطرٍ غزيرٍ وعواصفَ ثلجيةٍ فمات من المسلمين مائتا إنسانٍ، وغرق منهم كثير، وأُسر منهم مائتان أيضاً، فوجِد أمير المؤمنين الواثق عليه لذلك. وكان أحمد قد أقبل على رأس سبعة آلافٍ فخرج له بطريق من عظمائهم فجبُنَ أحمد عنه، فقال له وجوه الناس: إن عسكراً فيه سبعة آلافٍ لا يتخوّف عليه، فإن كنت لا تُواجه القوم فاخلص من بلادهم، فخرج فعزله الواثق، وعقد لنصر بن حمزة الخزاعيّ يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلةً بقيت من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

الإمارات:

وهي الإمارات التي تقع خارج ديار الخلافة الإسلامية، أو هي الإمارات المنفصلة عن دولة الخلافة، وكلها في بلاد المغرب الإسلامي إضافةً إلى بلاد الأندلس. وكانت قائمةً منذ مدةٍ تزيد على القرن،

أي قبل عهد الواثق بزمنٍ طويلٍ، وهي:

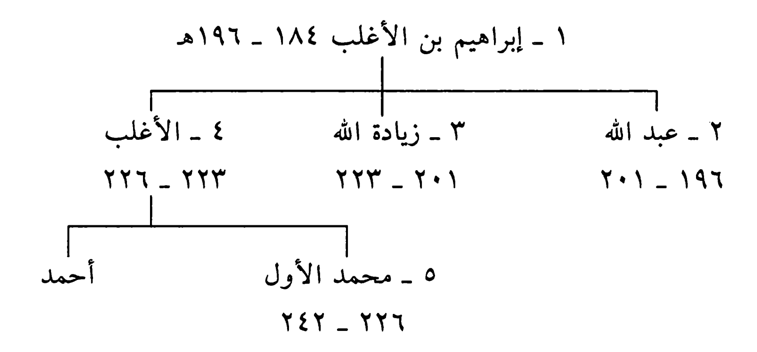
١" ـ دولة الأغالبة:

في المغرب الإسلامي الأدنى ومقرها القيروان، وقد تولّى أمرها سنة ٢٢٦هـ أبو العباس محمد الأول بن الأغلب بن إبراهيم بعد وفاة والده الأغلب، وقد سيّر سنة ٢٢٨هـ الفضل بن جعفر الهمداني على رأس قوةٍ بحريةٍ نزلت في ميناء «ماسينا» في جزيرة صقلية أقرب نقطة بين جزيرة صقلية وشبه جزيرة إيطالية، وبقي الفضل هناك يقاتل مدة سنتين، واستطاع المسلمون دخول مدينة ماسينا سنة ٢٣٢هـ، وكذلك سار أبو الأغلب العباس بن الفضل الفزاري[١] على رأس قوةٍ سنة ٢٢٩هـ دعماً للمسلمين هناك، وقد تولّى قيادة فتح جزيرة صقلية وإتمامه.

---

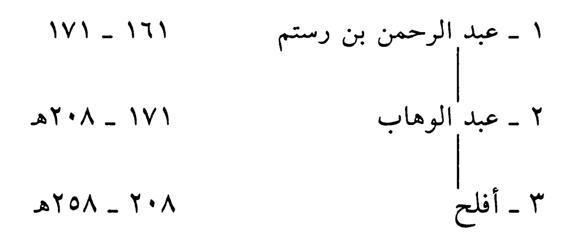
(١) العباس بن الفضل بن يعقوب الفزاري، المعروف بـ«ابن بربر»: أمير من كبار الغزاة، غزا وأغزى في البر والبحر، وخاض معارك كثيرة، وافتتح «قصريانة»، واحتلّ مدينة «أوستي» بإيطالية، وظفر أسطوله في معركةٍ بحريةٍ مع الروم فاستولى على مائة سفينةٍ تحمل نجدات لمدينة «سرقسطة»، وتوفي سنة ٢٤٧هـ، وهو على مقربة من مدينة «سرقسطة»، فجاء الروم ونبشوا قبره وأخرجوا جثته فأحرقوها.

ووقعت الحرب بين محمد بن الأغلب وأخيه أحمد بن الأغلب فانتصر محمد بعد هزيمةٍ فطرد أخاه إلى المشرق فمات بالعراق. ولما انتهى محمد بن الأغلب من أخيه أحمد فوجئ بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب بالمغرب الأوسط، وكان محمد قد عزله عن هذه الإمارة فأظهر الخلاف، وسار نحو القيروان، وجرت بين الطرفين معارك كان نتيجتها مقتل سالم وانتهاء حركته. وبقي محمد بن الأغلب أمير الأغالبة حتى توفي سنة ٢٤٢هـ.



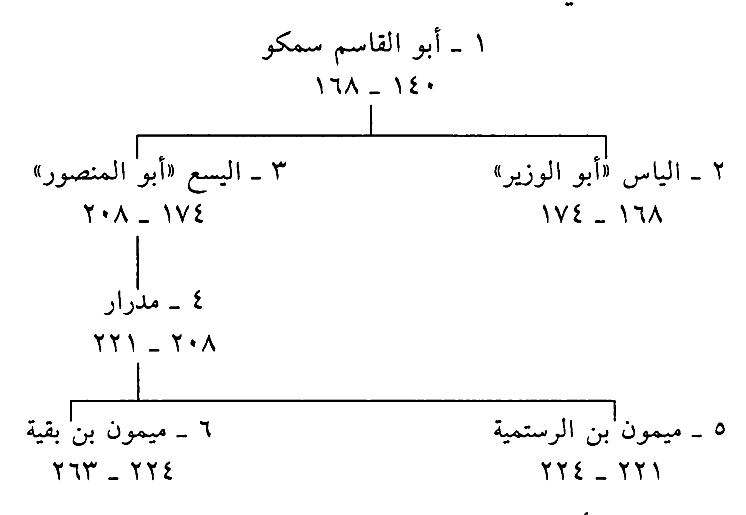
٢" ـ الدولة الرستمية:

في المغرب الإسلامي الأوسط، ومقرها مدينة «تياهرت»، وقد تولّى أمرها أفلح بن عبد الوهاب سنة ٢٠٨هـ، واستمر في حكمها حتى سنة ٢٥٨هـ.



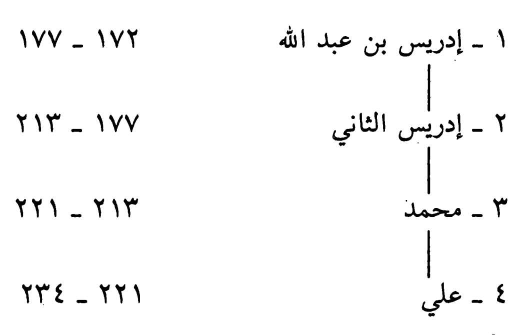
٣" ـ دولة الخوارج الصفرية:

في جنوبي المغرب الإسلامي الأقصى، ومقرها مدينة «سجلماسة»، ويحكمها ميمون بن بقية منذ سنة ٢٢٤هـ، وبقي حاكماً لها حتى سنة ٢٦٣هـ.



٤" ـ دولة الأدراسة:

في المغرب الإسلامي الأقصى، ومقرّها مدينة فاس، وكان يحكمها في أيام الخليفة الواثق علي بن محمد بن إدريس بن إدريس حتى توفي سنة ٢٣٤هـ.



٥" ـ الأندلس:

وكان أمير الأندلس في عهد الخليفة الواثق هو عبد الرحمن الأوسط، ووقعت في عهده انتصارات على الإسبان النصارى في شمالي الأندلس، كما نشط العمران، وسلاح الجيش.

١ ـ عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية
١٤٢ ـ ١٧٢

٢ ـ هشام «الرضا»
١٧٢ ـ ١٨٠

٣ ـ الحكم «الربضي»
١٨٠ ـ ٢٠٦

٤ ـ عبد الرحمن الأوسط
٢٠٦ ـ ٢٣٨

الفصل الثالث

شخصيّة الواثق

• كان الواثق أبيض مشرباً حمرةً، جميلاً ربعةً، حسن الجسم، قاتم العين اليسرى، وفيها نكتة بياض. ويُكنى أبا جعفر.

• كان أحمد بن أبي دؤاد[1] قد استولى على

---

(١) أحمد بن أبي دؤاد بن جرير بن مالك الإيادي، أبو عبد الله: أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن، ولد بالبصرة سنة ١٦٠هـ، وانتقل به أبوه إلى قنّسرين وهو لا يزال طفلاً، ثم عاد فارتحل به وهو حدث من قنّسرين إلى دمشق، فنشأ بها ونبغ، ومنها رحل إلى العراق، وكان فصيحاً ذا بيانٍ. وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه، وكان عارفاً بالأخبار والأنساب، وكان شديد الدهاء، اتصل أولاً بالمأمون، فلما قرب موته أوصى به أخاه المعتصم، فجعله قاضي قضاته، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلها، ولما مات المعتصم اعتمد الواثق على رأيه، ومات الواثق راضياً عنه، وتولّى=

الواثق، وحمله على التشدّد في المحنة، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن، ويقال: إنه رجع عنه قبل موته.

• كان الواثق وافر الأدب، مليح الشعر، ولم يكن في خلفاء بني العباس أكثر روايةً للشعر منه، كان أروى من المأمون، وكان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق، وكان الواثق لا يخلط بعلم العرب شيئاً.

• ما كان في خلفاء بني العباس أكثر حلماً من الواثق، ولا أكثر صبراً على أذىً ولا خلاف منه.

• قتل أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي[1]، وكان أحمد يغشاه أهل الحديث مثل

= المتوكل ففلج أحمد بن أبي دؤاد في أول خلافته سنة ٢٣٣هـ، وتوفي مفلوجاً ببغداد سنة ٢٤٠هـ، وكان جهمياً بغيضاً، حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن.

(١) مالك بن الهيثم الخزاعيّ: من نقباء بني العباس، خرج على بني أمية سنة ١١٧هـ هو وسليمان بن كثير وموسى بن كعب ولاهز بن قريط وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق، ودعوا لبيعة بني العباس، وظهر أمرهم، وقبض عليهم أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان، وأطلق مالك، فكان بعد ذلك مع أبي مسلم الخراساني، وتوفي سنة ١٣٨هـ، بعد مقتل أبي مسلم.
وكان نصر بن مالك من أمراء الخليفة المهديّ، وتولّى له=

يحيى بن معين وغيره، وكان يُظهر المباينة لمن يقول بخلق القرآن، ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك، ولا ينجو منه الخليفة الواثق من شدته على من لا يقول بخلق القرآن. وحمله أهل الحديث والذين ينكرون القول بخلق القرآن على إنكار ذلك صراحةً وعلناً، وقصدوه بذلك لما لأبيه وجدّه من أثرٍ في دولة بني العباس، ولما له هو من أثرٍ في شرقي بغداد في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخرج بعض الناس فقبض على بعضهم وعلى أحمد بن نصر وحملوا من بغداد إلى سامراء مُقيّدين يوم الخميس لليلةٍ بقيت من شعبان سنة ٢٣١هـ. وعقد لهم أحمد بن أبي دؤاد مجلساً عاماً ليُمتحنوا امتحاناً مكشوفاً. وكان الواثق حاضراً المجلس ولكن لم يناظره في الشغب ولا فيما رفع عليه من رغبته الخروج عليه، ولكنه قال له: يا أحمد، ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله ـ وأحمد بن نصر مستقتل قد تنوّر وتطيّب ـ قال: أفمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن

= الشرطة، وتوفي سنة ١٦١هـ ببغداد من أثر فالجٍ أصابه، وإليه تُنسب «سويقه نصر» في شرقي بغداد، أقطعه إياها المهديّ.

رسول الله ﷺ، أنه قال: (ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته)، فنحن على الخبر. قال: وحدّثني سفيان بن عيينة بحديثٍ يرفعه: (أن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الله يقلّبه). وكان النبيّ ﷺ، يدعو: (يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك). فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك انظر ماذا تقول! قال: أنت أمرتني بذلك، فأشفق إسحاق من كلامه، وقال: أنا أمرتك بذلك! قال: نعم، أمرتني أن أنصح له إذ كان أمير المؤمنين، ومن نصيحتي له ألا يخالف حديث رسول الله ﷺ. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فأكثروا فيه، فقال عبد الرحمن بن إسحاق: حلال الدم، وقال آخرون.... فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قمت إليه، فلا يقومنّ أحد معي، فإني أحتسب خطاي إليه، فضربه الواثق ضربةً، فوقعت على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه فقتله، وكان ذلك في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وأمر الواثق أن يتتبع من وُصف بصحبة أحمد بن نصر فوضعوا في السجون.

• حُمل إلى الواثق عبد الله بن محمد الأذرمي، أبو عبد الرحمن، حمل مُكبّلاً بالحديد من بلاده، وكان

أحمد بن أبي دؤاد حاضراً، فقال أبو عبد الرحمن: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه، أعلمه رسول الله ﷺ، فلم يدعُ الناس إليه، أم شيء لم يعلمه؟ قال أحمد بن أبي دؤاد: بل علمه، قال: فكان يسعه أن لا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم؟ فبُهتوا، وضحك الواثق، وقام قابضاً على فمه، ودخل بيتاً ومدّ رجليه، وهو يقول: وسع النبيّ ﷺ أن يسكت ولا يسعنا، فأمر له أن يُعطى ثلاثمائة دينارٍ، وأن يُردّ إلى بلده، ولم يمتحن أحداً بعدها، ومقت أحمد بن أبي دؤاد من يومئذٍ.

- قال يزيد المهلبي: كان الواثق كثير الأكل جداً.

- قال ابن فهم: كان للواثق خِوان من ذهبٍ مؤلفٌ من أربع قطعٍ يحمل كل قطعةٍ عشرون رجلاً، وكل ما على الخِوان من غضارةٍ وصحفةٍ وسكرجةٍ من ذهبٍ، فسأله ابن أبي دؤاد أن لا يأكل عليه للنهي عنه، فأمر أن يُكسر ذلك ويضرب ويحمل إلى بيت المال[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي.

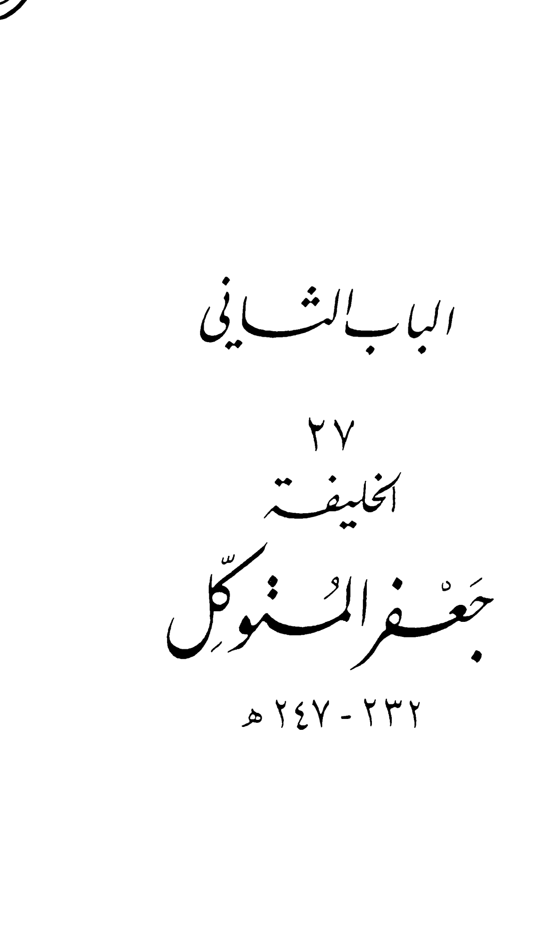
وفاة الواثق

كانت العِلّة التي مات بها الواثق هي الاستسقاء، فعولج بالإقعاد في تنُّورٍ مُسخّنٍ، فوجد لذلك راحةً وخِفّةً مما كان به، فأمرهم من غدِ ذلك اليوم بزيادةٍ في إسخان التنّور، ففُعل ذلك، وقعد فيه أكثر من قعوده في اليوم الذي قبله، فحمي عليه، فأُخرج منه، وصيّر في محفّةٍ، وحضره الفضل بن إسحاق الهاشميّ وعمر بن فرج وغيرهم، ثم حضر ابن الزيات وابن أبي دؤاد، فلم يعلموا بموته حتى ضرب بوجهه المحفّة، فعلموا أنه قد مات.

وكانت وفاته لستٍّ بقين من ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، ودفن بقصره بالهارونيّ. وكان الذي صلّى عليه، وأدخله قبره وتولّى أمره أحمد بن أبي دؤاد. وكان الواثق أمر أحمد بن أبي دؤاد أن يصلّي بالناس يوم عيد الأضحى في المصلّى، فصلّى بهم العيد، لأن الواثق كان شديد العِلّة فلم يقدر على الحضور إلى المصلّى، ومات من علّته تلك.

وتوفّى وهو ابن ستٍّ وثلاثين سنةً، وكانت خلافته خمس سنواتٍ وتسعة أشهرٍ وأحد عشر يوماً.

توفي الواثق ولم يعهد لأحدٍ من بعده.



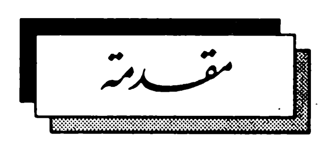
الباب الثاني

٢٧

الخليفة

جَعْفر المُتوكِّل

٢٣٢ - ٢٤٧ هـ



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله النبيّ العربيّ وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله، وعلى آله وصحبه أجمعين، *أما بعد* :

فإن المسلمين لمّا توانوا في أداء المهمّة الأساسيّة المكلّفين بحملها المسؤولين بأدائها وهي الدعوة إلى الله ونشر الإسلام وإبلاغ ذلك إلى العالم أجمع والوسيلة إلى ذلك هو الجهاد في سبيل الله، فلما تساهلوا وتوانوا وقصّروا وتراخوا التفتوا إلى الحياة الدنيا وأخلدوا إلى الأرض ينعمون بمباهجها ويغبّون من مناهلها ويرفلون بنعيمها ويتباهون بمفاتنها ولعلّ أكثر ما يُغري المرء في هذه الحياة:

١" ـ المنصب والجاه:

وإذا اتجه المرء إلى هدفه الذي يضعه نصب عينيه وسار نحوه وقع في كثيرٍ من الأخطاء سواء انتبه إليها أم لم ينتبه ما كان له أن يتجاوزها، ومرّ على عددٍ من المزالق سواء شعر بها أم لم يشعر ما كان له أن يتخطّاها لما فيها، ولكثرة هذه وتلك لم يعُد يبالي بما

يحدث معه، وتسهل عليه الصغائر وربما وقع في الكبائر إذ هو ماضٍ إلى هدفه لا يرى سواه، لا يهتم بما اعترضه، فإذا وصل إلى مبتغاه فإنه يريد أن يُحافظ عليه فيحتال على من يعترضه، ويضرب من يُنافسه، ويبطش يمنةً بمن يتقدّمه، ويدوس يسرةً على من ينصحه لا يبالي ما دام قد تلوّث، ولا يهتمّ ما دام قد تعوّد على أن يفعل ما لا يحقّ له أن يفعله.

وكلما توانى المسلمون عن الجهاد انصرفوا إلى الحياة الدنيا وكثُر طلّابها وكانت المنافسة، وكانت الحيل والألاعيب، وعانى المجتمع المرارة، وكل يعزي السبب إلى جهةٍ.

وليس هذا يعني أنه لا يوجد كرام يحتلّون مراكز أساسيةً ويشغلون مناصب رئيسيةً، ويديرون الأمور بوعيٍ متميزٍ، ويصدُقون في أقوالهم ويُخلصون في أعمالهم، ويخشون الله بكل تصرّفٍ يقومون به، ويكفي أن نذكر من تولّى الأمور في صدر الإسلام.

٢" ـ المال:

المال عصب الحياة فإذا كان مصدر المال حلالاً طيباً كان العصب يؤدي وظيفته بشكلٍ جيدٍ، وكان الجسم سليماً لا خلل فيه، أما إذا كان المصدر حراماً

فإن العصب لا يُؤدّي وظيفته بصورةٍ صحيحةٍ بل يُحدث اهتزازاً ورجفةً فيتأثّر الجسم ويكون الخلل، وتكون المعاناة.

وكثيراً ما يكون المال ابتلاءً لصاحبه، وقد يكون الحصول عليه مشروعاً فالمال حلال كالإرث مثلاً، غير إن إنفاقه قد لا يكون سليماً فيخسر مالكه دنياه بإتلافه وحسرته على ذلك ويخسر آخرته بمحاسبته وسؤاله، وبالتالي لا يجني إلا خسراناً ولا يجرّ عليه إلا وبالاً. وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ وعن جسمه فيمَ أبلاه)[١].

وعندما ينصرف المسلمون عن الجهاد ويلتفتون إلى الدنيا يتجه كثير إلى الجمع ويكون التنافس، ومتى كان الجمع هدفاً وكان سباقاً كانت مجالات غير مشروعةٍ، ولم تكن دقّة في الأساليب ولا نظر في الوسائل، ولا حكمة بالطريقة، هذا إضافةً إلى دروب الإنفاق ومجال المصروفات.

---

(١) رواه الترمذي والدارمي.

والأملاك من أراضٍ وقصورٍ ومزارع وبساتين وهل هي لشكر النعمة وأداء الحقوق أيام الحصاد والمساعدات أم للتعالي والترف وإقامة الجلسات غير المشروعة. وقد زاد هذا كثيراً عندما توقّف الجهاد، وانصرف الناس إلى الحياة الدنيا ونعيمها.

٣" ـ النساء:

والنساء شقائق الرجال، وكل طرفٍ يكمل الآخر، وحاجة أحدهما للثاني من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والنساء هي التي تُنجب حفاظاً على السلالة البشرية، وزيادةً للمسلمين لتحقيق المهمّة الأساسية لهم، وهي الجهاد في سبيل الله لتأمين الدعوة ونشر الإسلام وحمايةً لما فُتح من أمصارٍ، ومن هنا كان التعدّد للزيادة، فلو لم يكن هذا موجوداً في صدر الإسلام لم تكن الخلافة قادرةً على إعداد الجيوش التي تُجاهد على مختلف الجبهات كما لم يكن باستطاعتها حماية الأمصار الواسعة التي فُتحت والتي كانت تمتدّ من وسط بلاد الفرنجة (فرنسا) غرباً إلى الصين شرقاً، ومن بلاد الصقالبة شمالاً إلى المحيط الهندي وأرض السودان جنوباً، وحماية البلدان تختلف عن الجهاد على الجبهات والمرابطة في الثغور.

وإن اختلاف سنّ الزواج بين الرجل والمرأة يتيح هذا التعدّد. وإن هذا التعدد محدّد بعددٍ لا يمكن تجاوزه بأيّ حالٍ من الحالات، وهو الأربع من النساء الحرائر، ولكن يمكن إضافة الجواري؛ وهو ما يؤخذ في الحرب من السبي، أو ما يعرف بملك اليمين أو مما يُشترى. ويبقى عدد الجواري مقبولاً لأن الرجال عندهم مهمة أساسية وهي الجهاد في سبيل الله إذ لا يمكن لأحدهم أن ينفر للجهاد، ويترك خلفه ثَقَله الكثير. ولكن لما توقّف الجهاد، وانصرف الناس إلى الحياة الدنيا زاد عندهم عدد الجواري، وعاشوا بينهنّ غير أن العدد كان مقبولاً وليس العدد الذي تذكره كتب الأدب والتاريخ والمبالغ فيه إلى درجةٍ تخرج به عن حدود العقل. وإن وجود الجواري قد قلّل الاهتمام من الزواج بالحرائر، وفي الوقت نفسه وُجدت مشكلة اجتماعية وهي كثرة الفتيات اللواتي يعشن دون أزواجٍ.

وأنجبت الجواري ولكثرتهن فإن الاهتمام بهنّ والعناية بهنّ قد قلّت إلا بعضهنّ وهنّ اللواتي لهنّ مزايا خاصة من جمالٍ، وأدبٍ، وصوتٍ، وغنجٍ خاصٍ، ومن كانت لها حظوة خاصة عند زوجها كان لأبنائها مكانة خاصة عند أبيهم، ويقدمون على إخوتهم في كل

مجالٍ. أما الأخريات فقد انصرفن إلى أولادهنّ فنشأت منافسة بينهنّ وبين الإخوة من أولادهنّ وخاصةً إن كان هناك سلطان وولاية عهد و... وظهر هذا واضحاً في هذه المرحلة من الخلافة العباسية، وأصبحت أمهات الخلفاء أكثرهنّ من أمهات الأولاد أي الجواري؛ بينما هذا لم يكن ليحدث في القرن الأول من الهجرة وربع القرن الثاني.

وكل هذا حدث في هذه المرحلة بسبب ترك الجهاد والالتفات إلى الحياة الدنيا. فنرجو من الله أن نستطيع إعطاء صورةٍ صحيحةٍ عن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم آخر خلفاء العصر العباسيّ الأول.

الفصل الأول

المتوكّل قبل الخلافة

ولد المتوكّل جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد سنة خمسٍ ومائتين في خلافة عمّه عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، وأمه أم ولدٍ اسمها «شجاع»، ولما ولي الخلافة أبوه محمد المعتصم سنة ٢١٨هـ بعد وفاة عمه عبد الله المأمون كان عمره ثلاث عشرة سنةً بدأ يملك الجواري حيث تُقدّم له هدايا، وما أن بلغ الحلم حتى بدأن يُنجبن له، فولدت له المدعوة «حبشية» سنة ٢٢٢هـ ولده محمداً «المنتصر»، وأنجبت له المدعوة «فتيان» ولده أحمد «المعتمد» سنة ٢٢٩هـ، وولدت له المدعوة «قبيحة» ولده الزبير «المعتزّ» سنة ٢٣٢هـ، كما وُلد له طلحة «الموفق»، وإبراهيم «المؤيّد»، وكان له من الحظايا «محبوبة» و«فضل» و....

وقد شُغل المتوكل بالجواري، وكان هذا هدف

أصحاب الهدايا من الجواري والذين وراءهم من المتلوّنين وغيرهم، ولم يُفكّر المتوكل بالخلافة. وتوفّي والده المعتصم سنة ٢٢٧هـ، وتولّى أخوه هارون الواثق الخلافة ولم يكن للمتوكل دور بل لم تظهر له أية مكانةٍ على الساحة السياسية أو الإدارية. وتوفّي الواثق في أواخر سنة ٢٣٢هـ، لست ليالٍ بقين من ذي الحجة، وحتى يوم الوفاة لم يُبال المتوكل بموضوع الخلافة.

لما توفي الواثق حضر الدار أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وعمر بن فرج، وأحمد بن خالد أبو الوزير، وإيتاخ، ووصيف فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق[1]، وهو غلام أمرد،

---

(١) محمد بن الواثق: محمد بن هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: ولد بالقاطول (سامراء) سنة ٢٢٢هـ في خلافة جده محمد المعتصم، وبويع بالخلافة سنة ٢٥٥هـ، وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة لليلةٍ بقيت من رجب، وقد بويع بعد خلع المعتز، وما قبل بيعة أحدٍ حتى أحضر المعتز بالله، فلما رآه قام له، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وجلس بين يديه، فجيء بشهودٍ، فشهدوا على المعتز أنه عاجز عن أعباء الإمامة، وأقرّ بذلك، ومدّ يده فبايع ابن عمه محمد بن الواثق (المهتدي بالله) فارتفع حينئذٍ المهتدي إلى صدر المجلس، =

= وقال: لا يجتمع سيفان في غمدٍ، وأنشد قول ابن ذؤيب:

تريدينَ كيما تجمعيني وخالداً   وهل يجتمع السيفان، ويحكِ في غمد؟

وقيل: إنه ما زال صائماً منذ استُخلف إلى أن قُتل.

وكان ورعاً عادلاً صالحاً متعبّداً بطلاً شجاعاً، قوياً في أمر الله، خليقاً بالإمارة، لكنه لم يجد معيناً ولا ناصراً، والوقت قابل للإدبار.

وقال أبو العباس هاشم بن القاسم: كنت عند المهتدي عشيةً في رمضان، فقمت لأنصرف، فقال: اجلس. فجلست، فصلّى بنا، ودعا بالطعام، فأُحضر طبق خِلاف عليه أرغفة وآنية فيها ملح وزيت وخلّ، فدعاني إلى الأكل، فأكلت أكل من ينتظر الطبيخ. فقال: ألم تكن صائماً؟ قلت: بلى. قال: فكُل واستوفِ، فليس هنا غير ما ترى! فعجبت ثم قلت: ولمَ يا أمير المؤمنين، وقد أنعم الله عليك؟ قال: إني فكّرت أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز، فغِرت على بني هاشم، وأخذت نفسي بما رأيت.

قال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشيءٍ، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يُخالَف، كأني أشرت إلى آبائه، فقال: رحم الله أحمد بن حنبل، لو جاز لي تبرّأت من أبي، تكلّم الحق وقُل به، فإن الرجل ليتكلّم بالحق فَيَنْبُل في عيني.

قال نفطويه: أخبرنا بعض الهاشميين أنه وجد للمهتدي صَفَط فيه جبّة صوفٍ، وكساء كان يلبسه بالليل، ويُصلّي فيه. وكان قد اطّرح الملاهي، وحرّم الغناء، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين، يجلس=

فألبسوه درّاعة سوداء وقلنسوة رُصافية، فإذا هو قصير، فقال لهم وصيف: أما تتقون الله! تُولّون مثل هذا الخلافة، وهو لا يجوز معه الصلاة. فتناظروا فيمن يولّونها، فذكروا عدداً. وخرج أحدهم فمرّ بالمتوكل فسأله: ما الخبر؟ فقال: لم ينقطع أمرهم بعد، ولم يصلوا إلى نتيجة. ثم إن بُغا الشرابي ذكره لهم، وجاء به، فقال: أخاف أن يكون الواثق لم يمت، فمرّ به، فنظر إليه مُسجّى، فرجع إلى المجتمعين بالدار، فجلس.

= بنفسه، ويجلس بين يديه الكتّاب، يعملون الحساب، ويلزم الجلوس يومي الخميس والاثنين.
لم يلبث أن انتفض الترك عليه ببغداد فخرج لقتالهم، ونشبت الحرب فتفرّق عنه من كان معه من جنده وهم من الترك أيضاً، وانضمّوا إلى صفوف أصحابهم، فبقي المهتدي في جماعةٍ يسيرةٍ من أنصاره، فانهزم والسيف في يده، ينادي: يا معشر المسلمين، أنا أمير المؤمنين قاتلوا عن خليفتكم! فلم يُجبه أحد، وأُصيب بطعنةٍ مات على أثرها.
كانت مدة خلافته أحد عشر شهراً وأياماً.
بنو المهتدي بالله: عبد الله أبو جعفر، وعبد الصمد أبو الحسن، وعبد الرحمن أبو بكر، وعبد الله أبو أحمد، وهبة الله أبو الفضل. وفي ذريته علماء وخطباء.

الفصل الثاني

خلافة المتوكّل

عندما رجع جعفر بن المعتصم إلى المجتمعين في الدار وجلس معهم، قام إليه أحمد بن أبي دؤاد وألبسه الدرّاعة الطويلة، وعمّمه، وقبّله بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وهكذا نُصّب جعفر بن المعتصم خليفةً، ولم يكن قد لُقّب بعد بالمتوكل. ثم غُسّل الواثق، وصُلّي عليه ودُفن، وبعدها رجعوا مباشرةً إلى دار العامة.

بويع جعفر بن المعتصم وعمره سبع وعشرون سنةً، وكتب له كتاب البيعة محمد بن عبد الملك الزيات، وهو يومذاك على ديوان الرسائل، واجتمعوا بعد ذلك على اختيار لقبٍ له، فاقترح ابن الزيات لقب «المنتصر» فلم يُقرّوا ذلك وإن كانوا قد استحسنوه، فلما كان غداة اليوم التالي بكّر أحمد بن أبي دؤاد إلى جعفر واقترح عليه لقب «المتوكّل»، وقال: أرجو أن يكون

موافقاً حسناً إن شاء الله، فأمر بإمضائه، وأحضر محمد بن عبد الملك الزيات، فأمر بالكتابة بذلك إلى الناس، فنفذت إليهم الكتب، ونسخة ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم. أمر أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره، وفي كتبه إلى قضاته وكتّابه وعمّاله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجري المكاتبة بينه وبينهم «من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين».

لما لم يكن هناك جهاد يُنظّم سير الأمة وحركة توجّهها ومنطلقها نحو مهمتها الأساسية، وتعبئة طاقاتها كافةً، وحشد إمكاناتها كافةً، وبذل جهدها كله للسير نحو الهدف الأساسي لها الذي تسعد به وتشعر بعزّها وقوتها ورفعة مكانتها، ولما لم يكن هذا كله لذا فقد انصرف الناس نحو أعمالهم الخاصة يسعون وراءها، وانطلق بعضهم لتحقيق رغباتهم، وتأمين مصالحهم، واتجه آخرون للوصول إلى مراميهم البعيدة أو للحصول على الشهرة أو الشهوة فكل للذي يُعنى به ساعٍ. فلم تكن هناك أهداف عامة بل أغراض خاصة فلكلٍ شأنه، ولكلّ مرماه.

الجنود:

كان الجند فرقاً بعضها حسب الشعوب، وبعضها حسب الأمصار ومنها الذي له مهمّات خاصة، فكان الأتراك، ولهم مكانتهم، وتسلّم عدد منهم قياداتٍ مُهمّة، ولهم موقع حسّاس، ومنهم المغاربة وهم ذو مكانةٍ أقلّ، ومنهم الأبناء وهم الهاشميون، ومنهم الشاكرية وهم أصحاب المهمات.

ولما بويع المتوكل ووضع العطاء للجند لثمانية أشهرٍ. فقد أمر للأتراك برزق أربعة أشهرٍ، وللجند والشاكرية ومن يجري مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهرٍ بينما أمر للمغاربة رزق ثلاثة أشهرٍ، فأبى المغاربة أن يقبضوا ما خُصّص لهم، فأرسل إليهم: من كان منكم مملوكاً فليمض إلى أحمد بن أبي دؤاد حتى يبيعه، ومن كان حرّاً صيرّناه أسوة بالجند، فرضوا بذلك، وتكلّم وصيف فيهم حتى رضي عنهم، فأُعطوا ثلاثةً، ثم أُجروا بعد ذلك مجرى الأتراك.

سجن محمد بن عبد الملك الزيات:

كان هارون الواثق قد استوزر محمد بن عبد الملك الزيات، وفوّض إليه الأمور، وكان الواثق قد غضب

على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور، فوكّل عليه عمر بن فرج ومحمد بن العلاء الخادم، فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ. فذهب جعفر المتوكل إلى محمد بن عبد الملك الزيات يسأله أن يكلّم له أخاه الواثق ليرضى عنه، فلما دخل عليه مكث واقفاً بين يديه مليّاً لا يكلمه، ثم أشار إليه أن يقعد فقعد، فلما فرغ ابن الزيات من نظره في الكتب، التفت إلى جعفر كالمتهدّد له، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ لتسأل أمير المؤمنين الرضا عني، فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا، يُغضب أخاه، ويسألني أن أسترضيه له! اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك، فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقيه به من قُبح اللقاء والتقصير به، فخرج من عنده فأتى عمر بن فرج ليسأله أن يختم له صكّه ليقبض أرزاقه، فلقيه عمر بن فرج بالخيبة، وأخذ الصكّ فرمى به إلى صحن المسجد.

كان عمر يجلس في مسجد، وكان أبو الوزير أحمد بن خالد حاضراً، فقام أحمد لينصرف، فقام معه جعفر، فقال: يا أبا الوزير، أرأيت ما صنع بي عمر بن فرج؟ قال: جُعلت فداك! أنا زمام عليه، وليس يختم صكّي إلا بالطلب والترفّق به، فابعث إليّ بوكيلك،

فبعث جعفر بوكيله، فدفع إليه عشرين ألفاً، وقال: أنفق هذا حتى يهيئ الله أمرك، فأخذها ثم أعاد إلى أبي الوزير رسوله بعد شهرٍ، يسأله إعانته، فبعث إليه بعشرة آلاف درهمٍ، وسار جعفر حين خرج من عند عمر مباشرة إلى أحمد بن أبي دؤاد، فدخل عليه، فقام له أحمد، واستقبله على باب البيت، وقبّله والتزمه، وقال: ما جاء بك؟ جُعلت فداك! قال: قد جئت لتسترضي لي أمير المؤمنين، قال: أفعل ونعمة عين وكرامة. فكلّم أحمد بن أبي دؤاد الواثق فيه، فوعده ولم يرض عنه. فلما كان يوم الحلبة كلّم أحمد بن أبي دؤاد الواثق، وقال: معروف المعتصم عندي معروف، وجعفر ابنه، فلما كلمتك فيه، ووعدت الرضا، فبحق المعتصم يا أمير المؤمنين إلا رضيت عنه! فرضي عنه من ساعته وكساه، وانصرف الواثق وقد قلّد أحمد بن أبي دؤاد جعفراً بكلامه حتى رضي عنه أخوه شكراً، فأحظاه ذلك عنده حين ملك.

وذُكر أن محمد بن عبد الملك كان كتب إلى الواثق حين خرج جعفر من عنده: يا أمير المؤمنين، أتاني جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه في زيّ المخنّثين له شعر قفا. فكتب إليه

الواثق: ابعث إليه فأحضره، ومُرْ من يجزّ شعر قفاه، ثم مُرْ من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه، واصرفه إلى منزله. فذكر عن المتوكل أنه قال: لما أتاني رسوله، لبست سواداً لي جديداً، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عني، فقال: يا غلام ادع لي حجاماً، فدُعي به، فقال: خذ شعره واجمعه، فأخذه على السواد الجديد، ولم يأته بمنديل، فأخذ شعره وشعر قفاه وضرب به وجهه.

قال المتوكل: فما دخلني من الجزع على شيءٍ مثل ما دخلني حين أخذني على السواد الجديد، وقد جئته فيه طامعاً في الرضا، فأخذ شعري عليه.

ولما توفي الواثق أشار محمد بن عبد الملك بابن الواثق للخلافة، وتكلم في ذلك وجعفر في حجرةٍ غير الحجرة التي يتشاورون فيها، فيمن يعقدون له، حتى بُعث إليه، فعُقد له هناك، فكان ذاك سبب هلاك ابن الزيات.

وكان بُغا الشرابي الرسول إليه يدعوه، فسلّم عليه بالخلافة في الطريق، فعقدوا له وبايعوا، فأمهل حتى إذا كان يوم الأربعاء لسبعٍ خلون من صفر سنة ٢٣٣هـ، وقد عزم المتوكل على مكروهٍ أن يناله به، أمر إيتاخ

بأخذه وعذابه، فبعث إليه إيتاخ، فظنّ أنه دعي به، فركب بعد غدائه مبادراً يظنّ أن الخليفة دعا به، فلما حاذى منزل إيتاخ قيل له: اعدل إلى منزل أبي منصور، فعدل وأوجس في نفسه خيفةً، فلما جاء إلى الموضع الذي كان ينزل فيه إيتاخ عُدل به يمنةً، فأحسّ بالشرّ، ثم أُدخل حجرةً، وأُخذ سيفه ومنطقته وقلنسوته ودرّاعته، فدفع إلى غلمانه، وقيل لهم: انصرفوا، فانصرفوا لا يشكّون أنه مقيم عند إيتاخ للسمر.

وقد كان إيتاخ أعدّ له رجلين من وجوه أصحابه يقال لهما يزيد بن عبد الله الحلواني وهرثمة شارباماني، فلما وصل محمد بن عبد الملك خرجا يركضان في جندهما حتى أتيا دار محمد بن عبد الملك، فقال لهم غلمان محمد: أين تريدون؟ قد ركب أبو جعفر، فهجما على داره، وأخذا جميع ما فيها.

وذُكر أن المتوكل وجّه في هذا اليوم في أخذ ما في منزله من متاعٍ ودوابّ وجوارٍ وغلمان، وجعل ذلك كله في قصره الهاروني بسامراء، ووجّه راشداً المغربيّ إلى بغداد في أخذ ما هنالك من أمواله وخدمه، وأمر أبا الوزير بأخذ ضياعه وضياع أهل بيته حيث كانت. وكان محمد بن عبد الملك الزيات لا يزال في حبسه

مطلقاً عدة أيامٍ، ثم أُمر بتقييده فقُيّد، وامتنع عن الطعام فكان لا يذوق شيئاً، وكان شديد الجزع في حبسه، كثير البكاء، قليل الكلام، كثير التفكّر، فمكث أياماً ثم أُجبر على السهر ومنع من النوم، يُساهر ويُنْخَس بمسلّةٍ، ثم ترك يوماً وليلةً، فنام وانتبه.

وكان محمد بن عبد الملك يخاطب نفسه في السجن فيقول: يا محمد بن عبد الملك، لم تُقنعك النعمة والدوابّ الفُرّه والدار النظيفة والكسوة الفاخرة، وأنت في عافيةٍ حتى طلبت الوزارة ذُقْ ما عملت بنفسك! فكان يُكرّر ذلك على نفسه، فلما كان قبل موته بيومٍ، ذهب عنه عتاب نفسه، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله. ولم يلبث قليلاً حتى مات. ولما مات أُحضر ولداه سليمان وعبيد الله، وكانا مسجونين، فدفعت جثته إليهما، فغسّلاه على الباب الخشب، وحفرا له، ودفناه.

وكان سجن المتوكل له يوم الأربعاء لسبعٍ خلون من صفر سنة ٢٣٣هـ، ووفاته يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من شهر ربيع الأول من السنة نفسها.

غضب المتوكل على عمر بن فرج:

وفي شهر رمضان سنة ٢٣٣هـ غضب المتوكل على

عمر بن فرج، فدُفع إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فسجن عنده، وأُمر بوضع اليد على ضياعه وأمواله، وأخذ متاعه، وبقي في القيد سبعة أيامٍ، ثم أُطلق من القيد، وصولح على بعض المال، وأخذ قصره.

محاسبة أبي الوزير:

أمر المتوكل في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٣هـ بمحاسبة أبي الوزير أحمد بن خالد، وأُخذت مبالغ من أمواله في العراق ومصر، كما سُجن عدد من الذين كانوا يتعاونون معه أمثال الهيثم بن خالد وأبناء أخي أبي الوزير وهم سعدون، وأحمد وعبد الله.

وكذلك عزل المتوكل عن ديوان الخراج الفضل بن مروان، والذين لاحظ أنهم يستفيدون من مواقعهم فيعملون لمصالحهم الخاصة فيملكون الضياع ويجمعون المال. وعيّن مكانهم آخرين يظنّ بهم الثقة. فقد عيّن على ديوان الخراج يحيى بن خاقان، واستكتب محمد بن الفضل الجرجرائي.

وأحبّ المتوكل أن يدرّب أبناءه على الإدارة والإشراف على سير العمل في الولايات فولّى ابنه محمداً (المنتصر) على مكة والمدينة والطائف واليمن

وذلك يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٢٣٣هـ، ولم يكن سنّ المنتصر يومذاك لتتجاوز الثانية عشرة.

فتنة محمد بن البعيث:

كان محمد بن البعيث في سجن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فتكلم فيه بُغا الشرابي، وأخذ منه الكفلاء نحواً من ثلاثين كفيلاً، منهم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وكان مع ابن البعيث رجل يخدمه يُسمّى خليفة، فأخبر خليفة سيّده ابن البعيث أن المتوكل قد مات، بعد أن أُشيع أن الخليفة معتلّ وذلك سنة ٢٣٤هـ. فأعدّ خليفة الدواب لابن البعيث وهربا معاً إلى أذربيجان حيث كان موضعه هناك في «مَرَنْد»[1] فجمع الطعام في مرند، ورمّم ما وَهَى من سورها، وكان فيها عيون ماء، وكانت له فيها قلعتان، إحداهما

---

(١) مَرَنْد: من مشاهير مدن أذربيجان، بينها وبين تبريز يومان، بدأ فيها الخراب منذ نهبها الكرج وأخذوا أهلها جميعاً. كانت مرند قريةً صغيرةً فنزلها جليس أبو البعيث، ثم حصنها البعيث، ثم ابنه محمد بن البعيث وبنى بها قصراً، وكان قد خالف أيام المتوكل فحاربه بُغا الصغير حتى ظفر به وحمله إلى سامراء، وهدم حائط مرند وذلك القصر.

وسط بحيرة «أورمية»[1] وتسمّى «شاهي»، والثانية تسمّى «يَكْدُر»، وأتى إلى ابن البعيث كل من أراد الفتنة من كل ناحيةٍ، من ربيعة وغيرهم، فصار في نحو ألفين ومائتي رجل.

كان والي أذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصّر في طلب ابن البعيث، فولّى المتوكّل على أذربيجان حمدويه بن علي بن الفضل السعدي، ووجّهه من سامراء على البريد، فلما وصل جمع الجند ومن استجاب له فصار في عشرة آلافٍ، فزحف إلى ابن البعيث، فألجأه إلى مدينة «مَرَنْد» فحاصره، وطال الحصار، فوجّه المتوكل زِيرَك التركي في مائتي ألف فارسٍ من الأتراك فلم يفعل شيئاً، فوجّه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة، فلم يُغن شيئاً، فوجّه إليه بُغا الشرابي في أربعة آلافٍ من مختلف فئات الجند. ولما اقترب بُغا الشرابي من مَرَنْد بعث عيسى بن الشيخ بن السلّيل الشيباني، ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث، ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل

(١) بحيرة أورمية: في أذربيجان إلى الغرب من مدينة تبريزٍ، وعلى بعد ٨٥ كيلومتر منها، وهي قليلة العمق، ضحلة المياه، ليس فيها أسماك.

على حكم أمير المؤمنين، وإلا قاتلهم، فإن ظفر بهم لم يستبق منهم أحداً، ومن نزل فله الأمان، وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة من قوم عيسى بن الشيخ، فنزل منهم قوم كثير بالحبال، ونزل خَتَن ابن البعيث على أخته أبو الأغرّ.

قال أبو الأغرّ: ثم فتحوا باب المدينة، فدخل أصحاب حمدويه وزِيرَك، وخرج ابن البعيث من منزله هارباً يريد أن يخرج من جهةٍ أخرى، فلحقه قوم من الجند، معهم منصور قهرمانه، وهو راكب دابةً، يريد أن يسير إلى نهرٍ عليه رحىً ليستخفي في الرحى، وفي عنقه السيف، فأخذوه أسيراً، وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة، ثم نودي بعدما انتهب الناس: برئت الذمة ممن انتهب، وأخذوا أهله، كما أخذوا من وجوه أصحابه المذكورين نحواً من مائتي رجلٍ، وهرب الباقون، فوافاهم بُغا الشرابي من غدٍ، فنادى مناديه بالمنع من النهب، وكتب بُغا الشرابي بالفتح لنفسه.

وقدم بُغا الشرابي بمحمد بن البعيث في شوال سنة ٢٣٥هـ، وبختنه أبي الأغرّ، وبصقر بن البعيث، وبخالد بن البعيث أخوي ابن البعيث ـ وكانا نزلا بأمان

ـ وبالعلاء بن محمد بن البعيث، خرج بأمان، وقدم من الأسرى بنحو مائةٍ وثمانين رجلاً، ومات باقيهم قبل أن يصلوا، فلما قربوا من سامراء حُملوا على الجمال يستشرفهم الناس، فأمر المتوكل بحبسهم جميعاً، وتقييد ابن البعيث.

لما أُتي المتوكل بمحمد بن البعيث، أمر بضرب عنقه، فطُرِح على نِطَع، وجاء السيّافون فلوّحوا له، فقال المتوكل، وغلُظ عليه: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعت؟ قال: الشقوة، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإني لي فيك لظنَّيّن أسبقهما إلى قلبي أوْلاهما بك، وهو العفو، ثم قال:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي
إمام الهدى والصفح بالناس أجملُ
وهل أنا إلا جُبلةٌ من خطيّةٍ
وعفوك من نور النبوة يُجْبَلُ
فإنك خير السابقين إلى العلا
ولا شكّ أن خير الفعَاليْن تَفْعَلُ

ثم التفت المتوكل إلى عليّ بن الجهم[1]، فقال:

---

(١) علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، من بني سامة، من=

إن معه لأدباً، فقال ابن الجهم: بل يفعل أمير المؤمنين خيرهما ويمنّ عليك، فقال: ارجع إلى منزلك (السجن).

وذُكر أن المعتزّ كان جالساً مع أبيه المتوكل وهو يُكلّم ابن البعيث، فتكلّم فيه المعتزّ، واستوهبه فوهب له، وعُفي عنه.

وكان ابن البعيث حين هرب يقول:

كم قد قضيت أموراً كان أَهْمَلَها
غيري وقد أخذ الإفلاس بالكَظَم
لا تعذليني فيما ليس ينفعني
إليك عني جرى المقدار بالقلم
سأُتْلِفُ المال في عُسرٍ وفي يُسرٍ
إن الجواد الذي يُعطي على العدم

وحين هرب محمد بن البعيث خلّف في منزله

= لؤي بن غالب: شاعر، رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد، وخصّ بالمتوكل، ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، فأقام مدةً، وانتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعةٍ يريد الغزو، فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم، وجُرح ومات من جراحه سنة ٢٤٩هـ، له ديوان شعر.

ثلاثة بنين له، يقال لهم: حَلْيس والبعيث وجعفر، وجواري، فحبسوا ببغداد في قصر الذهب. ومات ابن البعيث بعد دخوله سامراء بشهرٍ.

وبعد موت ابن البعيث تكلّم بُغا الشرابي في خَتَنه أبي الأغرّ، فأُطلق وأُطلقت خالة لابن البعيث، وبقي الآخرون في السجن.

ولما قُبض على ابن البعيث أُخرج من السجن ما كان محبوساً بسبب كفالته به، وكان بعضهم قد مات في السجن، وأخرج بعدُ باقي عياله، وصار بنوه حَلْيس والبعيث وجعفر في عداد الجند الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وأُجريت عليهم الأنزال.

مقتل إيتاخ:

كان إيتاخ غلاماً خزريّاً لسلام الأبرش، ويعمل طبّاخاً، فاشتراه منه المعتصم سنة ١٩٩هـ، في خلافة أخيه المأمون، وكان لإيتاخ رجولة وبأس، فرفعه المعتصم، ومن بعده الواثق، حتى ضمّ إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرةً، وولّاه المعتصم معونة سامراء مع إسحاق بن إبراهيم، وكان من قِبَله رجل، ومن قِبَل إسحاق رجل، وكان من أراد المعتصم أو الواثق قَتْلَه



مصور رقم [١]

فعند إيتاخ يُقتل، وبيده يُحبس، منهم محمد بن عبد الملك الزيات، وأولاد المأمون من سُنْدس، وصالح بن عُجيف وغيرهم، فلما ولي المتوكل كان في مرتبته، إليه الجيش، والمغاربة، والأتراك، والموالي، والبريد، والحجابة، ودار الخلافة.

خرج المتوكّل بعدما استوت له الخلافة متنزّهاً إلى ناحية «القاطول»، وكان معه إيتاخ، فصدرت منه كلمات لم يستطع إيتاخ تحمُّلَها فهمّ بقتله، فلما أصبح المتوكل قيل له، فاعتذر إليه والتزمه، وقال له: أنت أبي وربّيتني. فلما صار المتوكل إلى سامراء دسّ إليه من يُشير عليه بالاستئذان للحج، ففعل وأَذِن له، وصيّره أمير كل بلدةٍ يدخلها، وخلع عليه، وركب جميع القواد معه، فحين خرج إيتاخ للحج، جعل المتوكل الحجابة إلى وصيف.

لما انصرف إيتاخ من مكة راجعاً إلى العراق وقد انقضى الموسم وجّه المتوكل إليه سعيد بن صالح الحاجب مع كسوةٍ وألطاف، وأمره أن يلقاه بالكوفة أو ببعض طريقه، وقد تقدّم المتوكل إلى عامله على الشرطة ببغداد بأمره فيه. وحين اقترب إيتاخ من بغداد خرج إسحاق بن إبراهيم إليه، وكان إيتاخ يريد أن يأخذ طريق

الفرات إلى الأنبار، ثم يخرج إلى سامراء، فكتب إليه إسحاق بن إبراهيم: إن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ قد أمر أن تدخل بغداد، وأن يلقاك بنو هاشمٍ ووجوه الناس، وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم، فتأمر لهم بجوائز.

وخرج إسحاق بن إبراهيم من بغداد في خاصّته حتى إذا وصل إلى «الياسرية» شحن الجسر بالجند، وطُرح له صُفّة فجلس عليها حتى قالوا: قد قَرُب منك. فركب فاستقبله، فلما نظر إليه أهوى إسحاق لينزل فحلف عليه إيتاخ ألا يفعل.

كان إيتاخ في ثلاثمائةٍ من أصحابه وغلمانه، عليه قباء أبيض، متقلّداً سيفاً بحمائل. فسارا جميعاً حتى إذا صار عند الجسر تقدّمه إسحاق عند الجسر، وعبر حتى وقف على باب خزيمة بن خازم، وقال لإيتاخ: تدخل أصلح الله الأمير! وكان الموكّلون بالجسر كلما مرّ بهم غلام من غلمانه قدّموه، حتى بقي في خاصّة غلمانه، ودخل بين يديه قوم، وقد فُرشت له دار خزيمة، وتأخّر إسحاق، وأمر ألا يدخل الدار من غلمانه إلا ثلاثة أو أربعة، وأخذت عليه الأبواب، وأمر بحراسته من ناحية الشطّ، فحين دخل أُغلق الباب خلفه، فنظر فإذا ليس

معه إلا ثلاثة غلمان، فقال: قد فعلوها! ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه، ولو دخل إلى سامراء فأراد بأصحابه قَتْلَ جميع من خالفه أمكنه ذلك. فأُتي بطعامٍ قرب الليل، فأكل، فمكث يومين أو ثلاثة، ثم ركب إسحاق في حَرّاقة وأعدّ لإيتاخ أخرى، ثم أرسل إليه أن يصير إلى الحراقة، وأمر بأخذ سيفه، فحدروه إلى الحراقة، وصُيّر معه قوم في السلاح، وصعد إسحاق حتى صار إلى منزله، وأُخرج إيتاخ حين بلغ دار إسحاق، فأُدخل ناحيةً منها، ثم قُيّد فأُثقل بالحديد في عُنقه ورجليه، ثم قُدّم بابنيه منصور ومظفّر، وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زيادة النصراني بغداد. وكان سليمان على أعمال السلطان، وقدامة على ضياع إيتاخ خاصةً، فحبسوا ببغداد، فأما سليمان وقدامة فضربا، فأسلم قدامة، وحُبس منصور ومظفّر.

ووقف «تُرْك» مولى إسحاق على باب البيت الذي فيه إيتاخ محبوس، فقال له: يا تُرْك: أقرئ الأمير السلام، وقل له: قد علمت ما كان يأمرني به المعتصم والواثق في أمرك، فكنت أدفع عنك ما أمكنني، فلينفعني ذلك عندك، أما أنا فقد مرّ بي شدّة ورخاء، فما أبالي ما أكلت وما شربت، وأما هذان الغلامان

فإنهما عاشا في نعمةٍ ولم يعرفا البؤس، فصيّر لهما مرقةً ولحماً وشيئاً يأكلان منه. فذهب تُرْك ووقف على باب مجلس سيّده إسحاق، فقال له: ما لك يا ترك؟ أتريد أن تتكلم بشيءٍ؟ فقال: نعم، قال لي إيتاخ كذا وكذا.

كان نصيب إيتاخ رغيفاً وكوزاً من ماءٍ. أما ابناه فيُؤمر لهما بخِوان فيه سبعة أرغفةٍ، وخمس غُرف. ومات إيتاخ يوم الأربعاء لخمسٍ خلون من جمادى الآخرة سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين، وأشهد إسحاق على موته أبا الحسن إسحاق بن ثابت بن أبي عباد وصاحب بريد بغداد والقضاة، وأراهم إياه لا ضرب به ولا أثر. وقيل: إن موت إيتاخ كان بالعطش، وأنه أُطعم فاستسقى فمُنع الماء حتى مات عطشاً. وبقي ابناه في الحبس حياة المتوكل، فلما أفضى الأمر إلى المنتصر أخرجهما، فأما مظفر فإنه لم يعش بعد أن أُخرج من السجن إلا ثلاثة أشهرٍ حتى مات، وأما منصور فعاش بعده.

تميّز أهل الذمة:

الأصل أن يتميّز أهل الذمّة في المجتمع الإسلامي حتى لا تُؤخذ تصرّفاتهم على المسلمين فيظنّ الجاهل

أن هذا من عمل المسلمين، فمنذ أن وجد أهل ذمة في المجتمع الإسلامي؛ كان هذا التميز قائماً غير أنه مع مرور الزمن وُجد توانٍ في هذا الأمر أو تساهل فاختلط الأمر بعض الشيء، أو أن أهل الذمّة قد حاول بعضهم عدم تطبيق النظام ليضيع الأمر، ويختلط الناس في المجتمع بعضهم مع بعضٍ مسلمهم بذمّيهم، فأمر المتوكل سنة ٢٣٥هـ بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير، وركوب السروج بِرُكَب الخشب، وجعل كرتين على مؤخرة السروج، وجعل زرّين على قلانس من لبس منهم قلنسوةً مخالفةً لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون، وجعل رقعتين على ظهر لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدةٍ من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسلياً، ومن لبس منهم عمامةً فكذلك يكون لونها عسلياً، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزارٍ عسليٍّ، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق. وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإن كان الموضع واسعاً جُعل مسجداً، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صُيّر فضاءً. وأمر أن يُجعل على

أبواب دورهم صور شياطين من خشبٍ مسمورة، تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى أن يُستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلّم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلّمهم مسلم، ونهى أن يُظهروا في شعانينهم صليباً، وأن يُسرعوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تُشبه قبور المسلمين.

وكتب إلى عماله في الآفاق:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التي لا تحاوَل وقدرته على ما يريد، اصطفى الإسلام فرضيه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيّد به أولياءه، وكَنَفه بالبر، وحاطه بالنصر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديان، مبرّءاً من الشبهات، معصوماً من الآفات، محبوّاً بمناقب الخير، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله، وحرّم عليهم من حرامه، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه، وأعدّ لهم من سعة جزائه

وثوابه، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه، وفيما حضّ عليه ووعظ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾[1]. وقال فيما حرّم على أهله مما غمط فيه أهل الأديان من رديء المطعم والمشرب والمنكح ليُنزّههم عنه وليطُهر به دينهم، ليفضّلهم عليهم تفضيلاً: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾[2].
وقال عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ . . .﴾[1] وقـــــال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[2]. فحرّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها، ومن شرابهم أدعاه إلى العدواة والبغضاء، وأكثره صدّاً عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزراً، وأولاها عن ذوي الحجى والألباب تحريماً، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات، فجعلهم أهل الإيمان والأمانة، والفضل والتراحم واليقين والصدق، ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر، ولا الحميّة ولا التكبّر، ولا الخيانة ولا الغدر، ولا التباغي ولا التظالم، بل أمر بالأولى ونهى عن الأخرى، ووعد

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠، ٩١.

وأوعد عليها جنّته وناره، وثوابه وعقابه، فالمسلمون بما اختصّهم الله من كرامته، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم، بائنون عن الأديان بشرائعهم الزاكية، وأحكامهم المرضية الطاهرة، وبراهينهم المنيرة، وبتطهير دينهم بما أحلّ وحرّم فيه لهم وعليهم، قضاء من الله عزّ وجلّ في إعزاز دينه، حتماً ومشيئة منه في إظهار حقه ماضيةً، وإرادةً منه في إتمام نعمته على أهله نافذةً ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1]. وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين.

وقد رأى أمير المؤمنين ـ وبالله توفيقه وإرشاده ـ أن يحمل أهل الذمّة جميعاً بحضرته وفي نواحي أعماله، أقربها وأبعدها، وأخصّهم وأخسّهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها، من لبسها من تجارهم وكتّابهم وكبيرهم وصغيرهم على ألوان الثياب العسلية، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم، ومن تقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ يكون

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

استدارة كل واحدةٍ منهما شبراً تامّاً في مثله، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه تلقاء صدره، ومن وراء ظهره، وأن يُؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرّةٍ عليها تُخالف ألوانها ألوان القلانس، ترتفع في أماكنها التي تقع بها، لئلا تلصق فتُستر، ولا ما يركب منها على حباك فتخفى، وكذلك في سروجهم باتخاذ رُكَبٍ خشبٍ لها، ونَصبِ أُكرٍ على قرابيسها، تكون ناتئةً عنها، وموفيةً عليها، لا يُرخّص لهم في إزالتها عن قرابيسهم، وتأخيرها إلى جوانبها، بل يُتفقّد ذلك منهم، ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يتبيّنه الناظر من غير تأملٍ، وتأخذه الأعين من غير طلبٍ، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشدّ الزنانير والكساتيج مكان المناطق التي كانت في أوساطهم، وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدّم إليهم فيه، وتحذّرهم إدهاناً وميلاً، وتتقدّم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عنادٍ وتهوينٍ إلى غيره، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها، وأخذهم بها إن شاء الله.

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وأمره، وأَنفذْ إلى عمالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله، وأمير المؤمنين يسأل الله ربّه ووليّه أن يصلّي على محمدٍ عبده ورسوله ﷺ وملائكته، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه، ويتولّى ما ولّاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه، حفظاً يحمل به ما حمله، وولاية يقضي بها حقه منه ويوجب بها له أكمل ثوابه، وأفضل مزيده، إنه كريم رحيم.

كان ذلك في سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين.

ثم أمر المتوكل في شهر المحرم سنة تسعٍ وثلاثين ومائتين بأخذ أهل الذِّمَّة بلبس دُرّاعتين عسليتين على الأقبية، ثم أمر في شهر صفر من السنة نفسها أن يقتصروا في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين. كما أمر بهدم البيع المحدثة في الإسلام.

ظهور محمود بن الفرج النيسابوري:

ظهر في سامراء سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين رجل يُقال له محمود بن الفرج النيسابوري فزعم أنه ذو

القرنين، ومعه سبعة وعشرون رجلاً، وكان ظهورهم عند خشبة بابك الخرميّ، وخرج من أصحابه بباب العامة رجلان، كما خرج رجلان آخران في مسجد بغداد، وزعما أنه نبيّ، وأنه ذو القرنين، فأُتي به وبأصحابه المتوكل، فأمر بضربه بالسياط، فضُرب ضرباً شديداً، وحُبس أصحابه، وكانوا قدموا من نيسابور، ومعهم شيء يقرؤونه، وكانت معهم عائلاتهم، وفيهم شيخ يشهد له بالنبوة، ويزعم أنه يُوحى إليه، وأن جبريل يأتيه بالوحي، فضُرب محمود مائة سوطٍ، فلم يُنكر نبوته حين ضُرب، وضُرب الشيخ الذي كان يشهد له أربعين سوطاً، فأنكر نبوته حين ضُرب، وحُمل محمود إلى باب العامة فأكذب نفسه، وقال: الشيخ قد خدعني، وأمر أصحاب محمود أن يصفعوه فصفعوه، كل واحدٍ منهم عشر صفعاتٍ، وأُخذ له دفتر فيه كلام قد جمعه، ذكر أنه قرآنه، وأن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يأتيه به. ومات محمود يوم الأربعاء لثلاثٍ خلون من شهر ذي الحجة من سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين ودفن في الجزيرة الفراتية.

هدم قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما:

أخذت العامة تُسيء التصرّف عند قبر الحسين بن

علي، رضي الله عنهما، في كربلاء، وتقوم بأعمالٍ منكرةٍ تعطي صورةً سيئة وغير صحيحةٍ عن الإسلام، الأمر الذي أثار أهل العلم فعملوا بالنصيحة وسعوا إلى التوجيه فلم يُجدِ عملهم شيئاً ولم ينفع توجيههم أبداً لأنه كان هناك تحريض وتشجيع من أولئك المتلوّنين الذين أسلمت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، ويريدون الإساءة، ويعملون على تشويه العقيدة فيقولون للعامة: إن هذه الأعمال مسموح بها بل واجب بها ما دام القصد منها تقدير عترة رسول الله ﷺ، ومن أقرب من الحسين من جدّه رسول الله ﷺ، لذا فهم يحثّون العامة، وبعيداً عن أعين المسؤولين، والعلماء يتقدّمون العامة ويبالغون بالقيام بتلك الأعمال المرفوضة والمنكرة التي تُسيء إلى الإسلام. ولا يزال أولئك المتلوّنون يقومون بهذا الدور من التحريض لوجوبه ـ حسب مخططهم ـ ويتقدّمون الرعاع من الناس. فالعامة تتصرّف بالعاطفة، وتتبع العادة، ومعنى ذلك استمرار الأجيال من العامة على الأعمال المنكرة وهذا ما جعل الأمر يصل إلى الخليفة بعد أن عجز العلماء عن الإصلاح بالنصيحة والتوجيه وبذل العلم، فأمر المتوكل سنة ستٍ وثلاثين ومائتين بهدم القبر بعد أن مضى عليه أكثر من ١٧٥ سنة أي أن الجثة قد رَمَّت، كما أمر بهدم

ما حوله من المنازل والدور، وأن يُحرث ويُبذر ويُسقى موضع القبر، وأن يُمنع الناس من إتيانه، فنادى منادي صاحب الشرطة في الناحية: من وجدناه عند القبر بعد ثلاثةٍ بعثنا به إلى المطبق (سجن) فهرب الناس وامتنعوا من الإتيان إليه، فحُرث ذلك الموضع،وزرع ما حوله.

حركة يحيى بن عمر الطالبي:

خرج سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب في جماعةٍ، واتجه إلى خراسان فردّه طاهر بن عبد الله بن طاهر[1] بعد أن تفرّقت عنه جماعته، وحُمل إلى بغداد، فضربه عمر بن فرج ثماني عشرة مقرعةً، ثم أمر المتوكل بسجنه، ثم أطلقه فأقام مدةً ببغداد، ثم انتقل إلى الكوفة[2].

---

(١) كان عبد الله بن طاهر قد مات بنيسابور سنة ٢٣٠هـ في أيام الواثق، فولّى الواثق أعمال عبد الله بن طاهر كلها إلى ولده طاهر.

(٢) سار يحيى إلى الكوفة أيام المستعين بالله، فجمع حوله بعض الأعراب، ودخلها ليلاً، فأخذ ما في بيت مالها، وفتح السجون وأخرج من فيها، ودعا إلى الرضى من آل محمد، فبايعه بعض الناس، فطرد نواب الخليفة من الكوفة، واستحوذ عليها وعسكر بالفلوجة، وقصده جيش فحاربه، فانتصر يحيى=

خروج أهل أرمينية على الوالي:

كان المتوكل قد ولّى على أرمينية يوسف بن محمد، فلما وصل إلى عمله خرج عليه أحد البطارقة ويُدعى بُقراط بن أشوط، ويُعدّ كبير بطارقة أرمينية، ويريد الإمرة لنفسه، فأخذه يوسف بن محمد، وقيّده وبعث به إلى الخليفة، فلما وصل بُقراط إلى سامراء أظهر إسلامه استدراراً للعطف، وليتمكّن من استلام الإمرة أما القلب فالله به أعلم. وكذلك أظهر ابن بُقراط الإسلام موافقةً لأبيه. فلما حُمل بقراط إلى سامراء قام ابن أخيه وجماعة من البطارقة مع بعض الأهالي وخرجوا على الوالي يوسف بن محمد، وحاصروه في مدينته، فخرج إلى باب المدينة فقاتلهم فقتلوه ومن كان معه كلهم، وأما من لم يقاتل معه، فإنهم أمروهم أن يخلع الواحد منهم ثيابه وينجو بنفسه عرياناً، فطرح كثير منهم ثيابه، ونجوا حفاةً عراةً فمات أكثرهم من شدّة

= وقوي أمره، وأظهر كثير من المتلونين قبول دعوته، والترحيب به وخاصةً في بغداد، فجاءه جيش آخر فالتقيا عند شاهي قرب الكوفة، فتفرّق عن يحيى أعوانه ـ كالعادة ـ وبقي في عددٍ قليل من الصادقين، وتعثّر به فرسه، فقتل، وحمل رأسه إلى المستعين، كان قوي الساعد.

البرد حيث كان الثلج يُجلّل سطح الأرض بارتفاع عدة أمتارٍ، وسقطت أصابع قومٍ منهم ونجوا.

وكانت البطارقة لما حمل يوسف بُقراط بن أشوط قد تحالفوا على قتل واليهم، ونذروا دمه، ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة، وهو زوج ابنة بقراط بن أشوط. فنهى سوادة بن عبد الحميد الحجّافيّ يوسف بن أبي سعيد عن المقام بموضعه، وأعلمه بما أتاه من أخبار البطارقة، فأبى أن يفعل، فوافاه القوم في شهر رمضان، فأحدقوا بسور المدينة والثلج ما بين عشرين ذراعاً إلى أقلّ حول المدينة إلى بلدة خِلاط، والأرض كلها ثلج.

وكان يوسف قد فرّق أصحابه في نواحي عمله، فتوجّه إلى كل ناحيةٍ منها قوم من أصحابه، فتوجّه إلى كل ناحيةٍ جماعة من البطارقة وممن معهم من جماعة، فقتلوهم في يومٍ واحدٍ، وكانوا قد حاصروه في المدينة أياماً، فخرج إليهم فقاتلهم حتى قُتل، فوجّه المتوكل إلى أرمينية بُغا الشرابي طالباً بدم يوسف، فسار إليها من ناحية الجزيرة الفراتية، فبدأ بـ«أرزَن» بموسى بن زرارة، وهو أبو الحرّ، وله إخوة: إسماعيل وسليمان وأحمد وعيسى ومحمد وهارون، فبعث بُغا إلى الخليفة موسى بن زرارة، ثم سار بُغا فأناخ بجبل «الخويثية»،

وهم جمّة أهل أرمينية، وقتلة يوسف بن محمد، فحاربهم فظفر بهم، فقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى منهم خلقاً كثيراً، ثم سار إلى مدينة دُبيل من أرمينية، فأقام بها شهراً، ثم سار إلى تفليس، فوجّه يوم السبت لعشرٍ خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين «زيرك» التركي فجاوز نهر الكُرّ «كورا»، وهو ما بين المدينة وتفليس في الجانب الغربي وصغدبيل في الجانب الشرقي، وكان معسكر بُغا في الشرق، فجاوز «زيرك» نهر الكرّ إلى ميدان تفليس، ولتفليس خمسة أبوابٍ: باب الميدان، وباب الحسك، وباب الصغير، وباب الربض، وباب صغدبيل، ونهر الكرّ ينحدر مع المدينة، ووجّه بُغا أيضاً أبا العباس الواثي النصراني إلى أهل أرمينية عربها وعجمها، فأتاهم زيرك مما يلي باب الميدان وأبو العباس مما يلي باب الربض، فخرج إسحاق بن إسماعيل الخارج عن الطاعة إلى زيرك، فناوشه القتال، ووقف بغا على تلٍّ مطلّ على المدينة مما يلي صغدبيل، لينظر ما يصنع زيرك وأبو العباس، فبعث بُغا النفّاطين فضربوا المدينة بالنار، وهي من خشب الصنوبر، فهاجت الريح في الصنوبر، فأقبل إسحاق بن إسماعيل إلى المدينة لينظر، فإذا النار قد أخذت في قصره وجواريه، وأحاطت به النار، ثم أتاه

الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً، وأخذوا ابنه عَمراً، فأتوا بهما بُغا، فأمر بُغا به، فرُدّ إلى باب الحسك، فضربت عنقه هناك صبراً، وحُمل رأسه إلى بُغا، فنصب على باب الحسك.

وكان الذي تولّى قتله «غامش» خليفة بُغا، واحترق في المدينة نحو خمسين ألف إنسانٍ، وأُطفئت النار في يومٍ وليلةٍ لأن نار الصنوبر لا بقاء لها، وصبّحهم المغاربة، فأسروا من كان حيّاً، وسلبوا الموتى. وكانت امرأة إسحاق بن إسماعيل نازلةً بصغدبيل، وهي جانب تفليس من الجانب الشرقي، وهي مدينة بناها كسرى أنوشروان، وكان إسحاق قد حصّنها وحفر خندقها، وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم، وأعطاهم بُغا الأمان على أن يضعوا أسلحتهم، ويذهبوا حيث شاء. وكانت امرأة إسحاق ابنة صاحب السرير.

ثم وجّه بُغا زيرك إلى قلعة الجَرْدَمان ـ وهي بين برذعة وتفليس ـ في جماعةٍ من جنده، ففتح زيرك الجَرْدَمان، وأخذ بطريقها القطريج أسيراً، فحمله إلى العسكر، ثم نهض بغا إلى عيسى بن يوسف ابن أخت اصطفانوس، وهو في قلعة «كثيش» من كورة البَيْلقان،

وبينها وبين البَيْلقان عشرة فراسخ، وبينها وبين برذعة خمسة عشر فرسخاً، فحاربه ففتحها، وأخذه وحمله وحمل ابنه معه وأباه، وحمل أبا العباس الواثي ـ اسمه سَنْباط بن أشُوط ـ ومعه معاوية بن سهل بن سنباط بطريق أرّان، وحمل آذرنرسي بن إسحاق الخاشنيّ.

خروج أهل حمص على الوالي:

كان عامل حمص على المعونة أبو المغيث الرافعي موسى بن إبراهيم فقتل رجلاً من رؤساء أهل حمص فوثب الناس على عاملهم في جمادى الآخرة سنة أربعين ومائتين، فقتلوا جماعةً من أصحاب الوالي، ثم أخرجوه، وأخرجوا عامل الخراج من مدينتهم، فبلغ ذلك المتوكل، فوجّه إليهم عتّاب بن عتّاب، ووجّه معه محمد بن عبدويه كرداس الأنباري، وأمره أن يقول لهم: إن أمير المؤمنين قد أبدلكم رجلاً مكان رجلٍ، فإن سمعوا وأطاعوا ورضوا فولّ عليهم محمد بن عبدويه، وإن أبوا وثبتوا على الخلاف فأقِم بمكانك، واكتب إلى أمير المؤمنين حتى يوجّه إليك رجاء، أو محمد بن رجاء الحضاري أو غيره على الخيل لمحاربتهم، فخرج عتّاب بن عتّاب من سامراء يوم الاثنين لخمسٍ بقين من شهر جمادى الآخرة سنة

أربعين ومائتين، فرضوا بمحمد بن عبدويه فولّاه عليهم ففعل فيهم الأعاجيب، فلم تمضِ السنة حتى وثبوا عليه وأعانهم عليه جماعة من نصارى حمص، فكتب بذلك إلى المتوكل، فأمره بمناهضتهم، وأمدّه بجندٍ من راتبة دمشق مع صالح العباسي التركي، وهو عامل دمشق، وبجندٍ من الرملة، وأمره أن يأخذ ثلاثةً من رؤسائهم فيضربهم بالسياط ضرب التلف، فإذا ماتوا صلبهم على أبوابهم ليكونوا عبرةً، وأن يأخذ بعد ذلك من وجوههم عشرين رجلاً فيضرب كل واحدٍ منهم ثلاثمائة سوطٍ، ويحملهم بالحديد إلى باب أمير المؤمنين، وأن يخرّب ما فيها من الكنائس والبيع، وأن يُدخل البيعة التي إلى جانب مسجدها في المسجد، وألا يترك في المدينة نصرانياً إلا أخرجه منها، وينادي فيهم قبل ذلك، فمن وجده فيها بعد ثلاثة أحسن أدبه. وأمر لمحمد بن عبدويه بخمسين ألف درهمٍ، وأمر لقواده ووجوه أصحابه بصلاتٍ، وأمر لخليفته علي بن الحسين بخمسة عشر ألف درهمٍ، ولكل من قواده بخمسة آلاف درهمٍ، وأمر بخلَعٍ، فأخذ محمد بن عبدويه عشرةً منهم، فكتب بأخذهم إلى دار أمير المؤمنين ولم يضربهم، فوجّه المتوكل رجلاً من أصحاب الفتح بن خاقان يقال له محمد بن رزق الله ليردّ من الذين وجّه

بهم محمد بن عبدويه اثنين وهما محمد بن عبد الحميد الحميدي والقاسم بن موسى بنِ فوعوس إلى حمص، وأن يضربهما ضرب التلف، ويصلبهما على باب حمص، فردهما وضربهما بالسياط حتى ماتا، وصلبهما على باب حمص، وقدما بالآخرين سامراء وهم ثمانية، فلما صاروا بـ«نصيبين» مات واحد منهم، وقدم بسبعةٍ منهم سامراء. ثم كتب محمد بن عبدويه أنه أخذ عشرةً منهم بعد ذلك، وضرب منهم خمسة نفر بالسياط فماتوا، ثم ضرب خمسةً فلم يموتوا. ثم كتب محمد بن عبدويه بعد ذلك أنه ظفر برجلٍ منهم من المخالفين يقال له عبد الملك بن إسحاق بن عمارة، ويعدّ رأساً من رؤوس الفتنة، فضربه بباب حمص بالسياط حتى مات، وصلبه على حصنٍ يعرف بتلّ العبّاس. وبهذه الشدّة قضي على الفتنة.

ضرب شاتم الصحابة:

شتم عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم، صاحب خان عاصم بغداد الصحابة، وشهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقية أبي حسّان الزيادي أنه شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة، فكتب بذلك صاحب بريد بغداد إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان،

فأنهى عبيد الله ذلك إلى المتوكل، فأمر المتوكل أن يكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يأمره بضرب عيسى هذا بالسياط، فإذا مات رمي في دجلة، ولا تُدفع جيفته إلى أهله.

فكتب عبيد الله إلى الحسن بن عثمان صاحب بريد بغداد جواب كتابه إليه في عيسى:

بسم الله الرحمن الرحيم. أبقاك الله وحفظك، وأتمّ نعمته عليك، وصل إليّ كتابك في الرجل المسمى عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الخانات، وما شهد به الشهود عليه من شتم أصحاب رسول الله ﷺ، ولعنهم وإكفارهم، ورميهم بالكبائر، ونسبتهم إلى النفاق، وغير ذلك مما خرج به إلى المعانذة لله ولرسوله ﷺ، وتثبّتك في أمر أولئك الشهود وما شهدوا به، وما صحّ عندك من عدالة من عدل منهم، ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به، وشرحك ذلك في رقعة درج كتابك، فعرضت على أمير المؤمنين، أعزّه الله، ذلك، فأمر بالكتاب إلى أبي العباس محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ـ بما قد نفذ إليه، مما يشبه ما عنده ـ أيّده الله ـ في نصرة دين الله، وإحياء سنّته، والانتقام ممن ألحد فيه، وأن

يضرب الرجل حدّاً في مجمع الناس حدّ الشتم، وخمسمائة سوط بعد الحدّ للأمور العظام التي اجترأ عليها، فإن مات أُلقي في الماء من غير صلاةٍ ليكون ذلك ناهياً لكل ملحدٍ في الدين، خارجٍ من جماعة المسلمين، وأعلمتك ذلك لتعرفه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ولما ضُرب ترك في الشمس حتى مات، ثم رمي به في دجلة.

قتل المرتدّ:

أظهر رجل نصرانيّ يُدعى عطارداً الإسلام فمكث مسلماً ثم ارتدّ، فاستُتيب فأبى الرجوع إلى الإسلام، فضُربت عنقه لليلتين خلتا من شوال سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وأحرق بباب العامة.

الرحيل إلى دمشق:

رحل الخليفة المتوكل إلى دمشق لعشرٍ بقين من ذي القعدة سنة ثلاثٍ وأربعين ومائتين، ودخلها في شهر صفر سنة أربعٍ وأربعين ومائتين، وعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها، فتحرّك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عائلاتهم، فأمر لهم

بما أرضاهم به، ثم استوبأ دمشق وذلك أن الهواء بها بارد نديّ، والماء ثقيل، والريح تهبّ فيها مع العصر، فلا تزال تشتدّ حتى يمضي عامة الليل، وهي كثيرة البراغيث، وغلت فيها الأسعار، وحال الثلج بين السابلة والميرة.

أقام المتوكل بدمشق شهرين وأياماً ثم رجع إلى سامراء، فأخذ في منصرفه على الفرات، فدخل سامراء يوم الاثنين لسبعٍ بقين من جمادى الآخرة سنة أربعٍ وأربعين ومائتين.

بناء الماحوزة:

أمر المتوكل سنة خمسٍ وأربعين ومائتين ببناء الماحوزة وسمّاها الجعفريّ، نسبةً له، وأقطع القواد وأصحابه فيها، وجدّ في بنائها، وتحوّل إلى المحمديّة ليتمّ أمر الماحوزة. وأمر بنقض القصر المختار والبديع، وحمل خشبهما إلى الجعفريّ، وأنفق عليها الكثير، وكان يُسمّيها هو وأصحابه «المتوكّليّة»، وبنى فيها قصراً سمّاه «لؤلؤة» وتحوّل المتوكّل إلى الماحوزة هذه المدينة التي بناها فنزلها في العاشر من شهر المحرّم سنة ستٍ وأربعين ومائتين. وأمر بحفر نهرٍ يبدأ قبل الماحوزة

بخمسة فراسخ، ولكن قُتل المتوكل ولم ينتهِ حفر النهر، ثم أُخربت الجعفرية ونُقضت.

الإمارات:

وهي الدويلات المنفصلة عن الخلافة الإسلامية، وتحكمها أسر خاصة بها، وهذه الإمارات كلها في مغرب ديار الخلافة وفي بلاد الأندلس.

١" ـ الأغالبة:

وهي الإمارة التي يحكمها بنو الأغلب، والتي أسّسها إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ، وتوالى على حكمها أبناؤه وأحفاده، وقاعدتها القيروان في المغرب الأدنى (تونس اليوم)، وفي أيام المتوكل كان أمير الأغالبة محمد الأول بن الأغلب، وهو الأمير الأغلبي الخامس، وكانت إمرته ٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ، وقد خرج عليه بمدينة تونس عمرو بن سليم التجيبي، وانتصر على جيشٍ بعثه إليه ابن الأغلب غير أنه هُزم في المعارك التي تلت ذلك وقتل. وفتح المسلمون مدينة «قصريانة» في جزيرة صقلية، وهي مقرّ الحكم بعد أن كانت «سرقوسة» إذ نقل الحكم إلى الأولى بعد أن دخل المسلمون الثانية، وكان فتح «قصريانة» سنة ٢٣٧هـ،

وتوفي أمير الأغالبة أبو العباس محمد الأول سنة ٢٤٢هـ فخلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، وفي عهده ثار البربر في منطقة طرابلس، وهزموا عاملها سنة ٢٤٥هـ، فأرسل إليهم أخاه أحمد زيادة الله، فانتصر عليهم، وغلب على أمرهم.

٢" ـ بنو رستم:

وهم أمراء الإمارة الرستمية التي أسّسها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦١هـ، وهم من الخوارج الأباضية، ومقرّها «تياهرت» في المغرب الأوسط «الجزائر اليوم»، وفي عهد المتوكل كان يحكم الدولة الرستمية أفلح بن عبد الوهاب، الأمير الرستمي الثالث، وكانت إمرته ٢٠٨ ـ ٢٥٨هـ.

٣" ـ إمارة الخوارج الصفرية:

وهي التي أسّسها أبو القاسم سمكو سنة ١٤٠هـ في المغرب الأقصى، وقاعدتها مدينة «سجلماسة»، وكان يحكمها في عهد المتوكل ميمون بن بقية، وهو الأمير السادس، واستمرّت إمرته ٢٢٤ ـ ٢٦٣هـ.

٤" ـ دولة الأدارسة:

وهي التي أسسها إدريس بن عبد الله سنة ١٧٢هـ

في المغرب الأقصى، ومقرها مدينة فاس، وكان يحكمها في عهد المتوكل يحيى الأول بن محمد الذي تولّى الإمرة سنة ٢٣٤هـ بعد وفاة أخيه علي بن محمد، ويحيى هو الأمير الإدريسي الخامس، وقد توسّعت الدولة في عهده، وهدأت الأوضاع، وكان محباً للعمران، وفي عهده بُني جامع القرويين بفاس، واستمرّت إمرته حتى توفي سنة ٢٥٠هـ، وخلفه ابن أخيه يحيى الثاني بن علي بن محمد.

٥" ـ الأندلس:

كان يحكم الأندلس عبد الرحمن الأوسط عندما تولى المتوكّل الخلافة، وتوفي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨هـ بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة (٢٠٦ ـ ٢٣٨)، وخلفه ابنه محمد الأول، وفي عهده قامت ثورات في شمالي الأندلس في برشلونة وطليطلة وغيرهما، فأرسل الحملات إلى الثائرين فأحرزت عليهم النصر، ووطّدت الأمن في تلك الجهات، واستمرّ في حكمه حتى توفي سنة ٢٧٣هـ.

الفصل الثالث

الجهاد أيّام المتوكّل

انطلق المسلمون إلى الجهاد بهمّةٍ قويّةٍ، وعزيمةٍ صادقةٍ، وحماسةٍ عاليةٍ، وإخلاصٍ تامٍ، وإيمانٍ عميقٍ لم يُعرف من قبل، ولم يكن عاماً من بعد، فأتتهم الدنيا صاغرةً، فالشعوب هابتهم، والأمم خافتهم، ورهبتهم الجيوش، وخضعت لهم القادة. أصحاب العقول النيّرة لبّوا نداءهم، وأهل البصيرة استجابوا لهم، ومن هداهم الله انضمّوا إلى ركب الإيمان فكانوا رِفد الخير. وغدا المسلمون اللؤلؤة المتألّقة وسط المعمورة، والقوة الشامخة في الأرض، وأمل كل راغبٍ بالحقّ، داعٍ إلى المحبة، ساعٍ إلى الرحمة والتراحم.

كان المسلمون هداة الخير، دعاة الحق، حماة العدل، رعاة الناس، سُعاة الأمن، عتادهم الإنصاف، ورأسمالهم الإيمان، وسلاحهم التوحيد، وهمّهم

الدعوة، وهذه مُهمّتهم الأساسية الملقاة على عاتقهم بالنسبة إلى البشر.

والتفت المسلمون أيضاً إلى مُهمّتهم الثانية وهي إعمار الأرض، التفتوا إلى ذلك بعد أن قطعوا شوطاً كبيراً من مُهمّتهم الأساسية وحقّقوا نجاحاً رائعاً، ومن ثمّ جاءت مرحلة الابتلاء والاختبار. أقبلوا على الأرض بصدقٍ يستنبتونها فأعطت الخير الكثير، واتجهوا إلى الصناعة فلانت لهم، وقدّموا الشيء الوفير، وأبحروا فبرعوا، وأتجروا فحالفهم النجاح، وسلكوا درب الحسابات فأجادوا، ورصدوا فنجحوا، وولجوا طريق الطب فأجادوا، وما أخذوا منحىً إلا وفّقهم الله.

وبالإخلاص بأداء المهمّة الأساسية والمهمّة الإعمارية ملكوا الأرض فاتحين، وجاءهم المال غانمين، وسيق إليهم السبي منتصرين، وحملت إليهم الجواري قاهرين، وأتاهم الإنتاج عاملين، فمالت نفوس إلى الدنيا، وأخلد كثيرون إلى الأرض، ونهلوا من الطيّبات، وأعطوا أجسامهم الراحة إذ ملكوا الأرض، وأتاهم الخير، والخدم بين أيديهم، والجواري أمام ناظريهم، والمماليك رهن إشارتهم، والموالي سواعد لهم، فلم يبق للسادة إلا الأوامر، والتقلّب في النعيم، والأخذ من متاع الدنيا، وكانت هذه حال الكثيرين،

وإن بقي آخرون لا يعيرون هذا كبير اهتمام، همهم الآخرة، ويسعون لها سعيها.

وما دام هناك كثيرون قد مالوا إلى الدنيا، ورغبوا في العاجلة، وغبّوا من مناهل طيبها، وتقلّبوا في نعيمها فإن الهمة قد فترت، والعزيمة قد خبت، والتهاون قد ظهر، والتكاسل قد بدا، ومع كثرة هؤلاء فقد ضعف الجهاد، وشُغل الناس بدنياهم.

وتحرّك المتلوّنون فبثّوا الشائعات، وحرّكوا الفتن فشُغل المجتمع بشائعاتهم وفتنهم حيث لا يوجد ما يُشغلهم ويكون حديثهم في المنتديات واللقاءات وجلسات السمر، وفي الوقت نفسه لا يوجد من قضايا الأمة ما يُحرّكهم، ولا من مهمات الأمة ما يدفعهم للتفكير فيه. وهذا ما يتفق مع مخططات المتلوّنين وأهدافهم إذ يضعف المسلمون، ويقوى أعداؤهم، وتنتشر شائعات المخططين الذين يريدون الهدم من الداخل. غير أن المسؤولين في الخلافة لا يمكن أن يستسلموا لشائعات الرعاع، ولا لتقاعس أهل الدنيا، فالروم حاقدون، وهم خلف الحدود ينتظرون الفرصة السانحة، ولا بد من إثبات وجودهم بالقيام ببعض الغارات، كي لا يعطوا دليلاً على خوفهم وضعف معنوياتهم، وصحيح أن للمسلمين هيبةً في نفوس

الروم، وللقائهم رهبةً إلا أنه لا بدّ من أن يثبتوا وجودهم في الميدان، وأنه لا تزال بهم قوة فيمكنهم النزال ويستطيعون القتال فلم ينته أمرهم لذا كانوا يقومون بين الآونة والأخرى بالإغارة على ثغور المسلمين أو الهجوم على بعض المواقع والهدف من ذلك ألا يطمع المسلمون بهم فيقومون بهجومٍ قويٍ يدحرون الروم وجيوشهم، ويكسحون ما بقي من قواتٍ، ويقضون على ما بقي من معنويات، ويحتلّون المدن والأرض، ويقضون على دولة الروم نهائياً، ويزيلونها من بين الأمم كما زالت دولة الفرس. وفي الوقت نفسه لا يريدون تكثيف الغارات أو تسيير الجيوش الجرارة لأن ذلك يجعل المسلمين يتناسون ما بينهم، ويتركون خلافاتهم، ويهملون ما يبثّه المتلوّنون من شائعات، ويلتفتون جميعاً إلى الأعداء فالنار قد اشتعلت، ويتحرّكون نحو الحدود يُعلنون الجهاد، ويرفعون رايات التكبير، ويعلم الروم يقيناً أن المسلمين إن أعلنوا الجهاد فلا مجال للوقوف أمامهم، فالهزيمة واقعة، والاندحار حاصل، والتخلّي عن مساحاتٍ واسعةٍ من الأرض لا بدّ منه، وفي النهاية ترك الساحة وزوال دولة بيزنطة، يعلم الروم ذلك من خلال معاركهم السابقة مع المسلمين أيام الجهاد، فالوقائع السابقة كلها

تشهد على ذلك، والأحداث تُؤكّد ما وقع. وربما يحاول الروم أحياناً إظهار حسن النية والرغبة بالمصالحة وإنهاء القتال، فيطلبون المفاداة وتبادل الأسرى، ويتمّ ذلك، ولكن هذا لا يمنع من قيام بعض الغارات لإظهار شيءٍ من القوة وإبداء عدم الضعف، وإمكانية المنازلة.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن المسلمين يُسيّرون الصوائف غير أنها بالواقع لا تزيد على الغارة والغاية منها هي أيضاً إظهار الاستعداد للقتال وأن ما يجري في ديار الإسلام لا أثر له على الجهاد والعمل للدعوة للإسلام، ويقوم المسلمون بردّ الغارات وتسيير الصوائف ولكن دون كبير أثرٍ. وقد تعدّدت الغارات بين الطرفين وتحركت الجيوش ولكن كأن الهدوء هو السائد.

• كانت «تذوره» زوج تيوفيل بن ميخائيل تملك الروم عندما تولّى المتوكل على الله الخلافة، وبعد أن ملكت ست سنواتٍ قام عليها ابنها ميخائيل بن تيوفيل فأدخلها الدير، وقتل الرجل الذي اتهمها به، ويدعى «اللُّغُثيط» وتسلّم ميخائيل الحكم، وذلك سنة ثلاثٍ وثلاثين ومائتين.

• سار على رأس الصائفة سنة سبعٍ وثلاثين ومائتين علي بن يحيى الأرمني.

• أبحر الروم بثلاثمائة مركبٍ باتجاه السواحل المصرية بإمرة ثلاثةٍ من القادة الكبار، كل قائدٍ يرأس

مائة مركبٍ وذلك سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين، ونزلوا في دمياط فعاثوا فقتلوا الرجال، وأخذوا النساء، وأحرقوا جامع دمياط، ثم رحلوا راجعين إلى بلادهم.

• وغزا الصائفة سنة ٢٣٨هـ أيضاً علي بن يحيى الأرمني، وكذا في السنة التي تلتها.

• أغارت الروم سنة ٢٤١هـ على ثغر «عين زربة»، فأسرت من كان فيها من الزّط مع نسائهم وذراريهم، واستاقت أنعامهم.

• وجّهت «تذورة» أم ميخائيل امبراطور الروم رجلاً يقال له جورجس بن قريافس يطلب الفداء لمن في أيدي الروم من المسلمين، وكان المسلمون قد قاربوا العشرين ألفاً، فوجّه المتوكل رجلاً يقال له نصر بن الأزهر بن فرج ليعرف صحة عدد من في أيدي الروم من أسارى المسلمين ليأمر بمفاداتهم وذلك في شهر شعبان من سنة إحدى وأربعين ومائتين، فأقام نصر عندهم حيناً، وعندما خرج أمرت «تذورة» أن يُعرض من في يدها من أسارى المسلمين على النصرانية، فمن تنصّر منهم كان أسوةً بمن تنصّر قبل ذلك، ومن أبى قتلته، وذكر أنها قد قتلت اثني عشر ألفاً، ويُقال إن أحد خصيانها كان يقتلهم دون علمها. ونفذ كتاب المتوكل إلى الثغور الشامية والجزرية أن «شنيف» الخادم

سيشرف على عملية المفاداة، وقد اتفق مع جورجس مبعوث امبراطور الروم، وسأل جورجس أن تكون هدنة بين الفريقين لمدة أربعة أشهرٍ، تبدأ من خمس ليالٍ تخلو من شهر رجب إلى سبع ليالٍ تبقى من شهر شوال من السنة نفسها (٢٤١هـ) حتى يتمّ جمع الأسرى، وتكون مدة كي يبلغوا مأمنهم، وكان الفداء في أيام عيد الفطر.

قدم جورجس مع جماعةٍ من البطارقة ومع غلمانه، وكان عددهم خمسين إنساناً، وخرج شنيف الخادم للفداء في النصف من شعبان، ومعه مائة فارسٍ: ثلاثون من الأتراك، وثلاثون من المغاربة، وأربعون من فرسان الشاكرية، فسأل جعفر بن عبد الواحد - وهو قاضي القضاة - أن يُؤذن له في حضور الفداء، وأن يستخلف رجلاً يقوم مقامه - فأُذن له، فاستخلف ابن أبي الشوارب، وخرج فلحق شنيفاً.

تمّ الفداء على نهر سيحان يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين. فكان أسرى المسلمين سبعمائةٍ وخمسةً وثمانين رجلاً، ومن النساء مائةً وخمساً وعشرين امرأةً.

• خرجت الروم سنة اثنتين وأربعين ومائتين من ناحية شِمْشاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من

الصائفة حتى قاربوا مدينة آمد، ثم خرجوا من الثغور الجزرية، فانتهبوا عدة قرىً، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، فخرج قريباس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوعة في أثرهم، فلم يلحقوا منهم أحداً. فكُتب إلى علي بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتياً.

• وجّه المتوكّل وهو في دمشق بُغا لغزو الروم في شهر ربيع الثاني سنة أربعٍ وأربعين ومائتين، فغزا الصائفة، فافتتح «صُمُلّة».

• بعث ملك الروم سنة خمسٍ وأربعين ومائتين بأسرى من المسلمين، وبعث يسأل المفاداة بمن عنده، وكان الذي قدم من قبل صاحب الروم رسولاً إلى المتوكل يدعى «أطروبسيليس» وهو رجل عجوز، ومعه سبعة وسبعون رجلاً من أسرى المسلمين، أهداهم ميخائيل تيوفيل ملك الروم إلى المتوكل، وكان قدومه عليه لخمسٍ بقين من شهر صفر سنة ٢٤٥هـ، فأُنزل على شنيف الخادم، ثم وجّه المتوكل نصر بن الأزهر مع مبعوث صاحب الروم، ولكن لم يقع الفداء إلا في السنة التالية.

• أغارت الروم على مدينة «سُميساط»، فقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائةٍ.

• غزا يحيى بن علي الأرمني الصائفة ومنع أهل «لؤلؤة» رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً، فبعث ملك الروم إليهم بطريقاً يدعى «اللّغُثيط» يضمن لكل رجلٍ منهم ألف دينارٍ، على أن يُسلّموا له «لؤلؤة»، فأصعدوه إليهم، ثم أُعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا، فسلّموا «لؤلؤة» والبطريق إلى «بَلْكاجور» في شهر ذي الحجة سنة ٢٤٥هـ. ولما دفعه أهل «لؤلؤة» إلى «بَلْكاجور» حمله علي بن يحيى الأرمني إلى المتوكل إلى الفتح بن خاقان فعرض عليه الإسلام فأبى، فقالوا: نقتلك، فقال: أنتم أعلم. وكتب ملك الروم أنه يبذل مكانه ألف رجلٍ من المسلمين.

• غزا عمر بن عبد الله الأقطع الصائفة فأخرج سبعة آلاف رأسٍ. وغزا قريباس فأخرج خمسة آلاف رأسٍ. وغزا الفضل بن قارن في عشرين مركباً، فافتتح حصن أنطالية. وغزا بلْكاجور فغنم وأخذ سبياً، وغزا علي بن يحيى الأرمني فأخرج خمسة آلاف رأسٍ، وأخذ من الأنعام عشرة آلافٍ.

• كان الفداء بين المسلمين والروم والذي تمّ الاتفاق عليه في السنة الماضية، وتمّ على يدي علي بن يحيى الأرمني، ففودي بألف وثلاثمائة وسبعةٍ وستين نفساً وذلك في صفر من سنة ستٍ وأربعين ومائتين.

وكان نصر بن الأزهر مبعوث المتوكل إلى ملك الروم في أمر الفداء، فقال: لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي، فجرت بيني وبين خال الملك بطرناس المناظرة ـ وهو القيم بشأن الملك ـ وأبوا أن يدخلوني بسيفي وسوادي، فقلت: أنصرف، فانصرفت فرُدِدت من الطريق ومعي الهدايا نحو من ألف نافجة مسكٍ وثياب وحرير وزعفران كثير وطرائف، وقد كان أُذن لوفود بُرجان وغيرهم ممن ورد عليه، وحُملت الهدايا التي معي، فدخلت عليه، فإذا هو على سريرٍ فوق سريرٍ، والبطارقة حوله قيام، فسلّمت ثم جلست على طرف السرير الكبير، وقد هُيِّئ لي مجلس، ووضعت الهدايا بين يديه، وبين يديه ثلاثة تراجمة: غلام فرّاش كان لمسرور الخادم، وغلام لعباس بن سعيد الجوهريّ، وترجمان له يقال له سُرْحون، فقالوا لي: ما نبلّغه؟ قلت: لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً، فأقبلوا يترجمون ما أقول، فقبل الهدايا، ولم يأمر لأحدٍ منها بشيءٍ، وقرّبني وأكرمني، وهيّأ لي منزلاً بقربه، فخرجت فنزلت في منزلي، وأتاه أهل لؤلؤة برغبتهم في النصرانية، وأنهم معه، ووجّهوا برجلين ممن فيها رهينةً من المسلمين.

قال: فتغافل عني نحواً من أربعة أشهرٍ، حتى أتاه كتاب مخالفة أهل لؤلؤة، وأخذهم رسله، واستيلاء المسلمين عليها، فراجعوا مخاطبتي، وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء، على أن يُعطوا جميع من عندهم وأُعطي جميع من عندي، وكانوا أكثر من ألفٍ قليلاً، وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين، منهم عشرون امرأةً، معهم عشرة من الصبيان، فأجابوني إلى المخالفة، فاستحلفت خاله، فحلف عن ميخائيل، فقلت: أيها الملك قد حلف لي خالك، فهذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم، ولم أسمعه يتكلم بكلمةٍ منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه: نعم أو لا، وليس يتكلّم وخاله المدبّر أمره، ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حالٍ، حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملةً وهؤلاء جملةً، وكان عداد من صار في أيدينا من المسلمين أكثر من ألفين منهم عدّة ممن كان تنصّر، وصار في أيديهم أكثر من ألفٍ قليلاً، وكان قوم تنصّروا، فقال لهم ملك الروم: لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء، فمن أراد أن أقبله في النصرانية فليرجع من موضع الفداء، وإلا فليضمن ويمض مع أصحابه، وأكثر من تنصّر أهل المغرب، وأكثر من تنصّر

بالقسطنطينية، وقد كان هناك صائغان تنصّرا، فكانا يُحسنان إلى الأسرى، فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين ممن ظهر عليه الملك إلا سبعة نفرٍ، خمسة أُتي بهم من صقلية، أعطيتُ فداءهم على أن يُوجّه بهم إلى صقلية، ورجلان كانا من رهائن لؤلؤة، فتركتهما، وقلت: اقتلوهما، فإنهما رغبا في النصرانية[1] بـ. . . . .

البجاة:

يُقيم في مرتفعات البحر الأحمر الغربية في السواحل السودانية الشمالية وفي تلك الجهات قوم يعرفون باسم «البجاة»، وهم من أصلٍ حاميٍ، وكانت بينهم وبين المسلمين هدنة، فلا يغزو طرفٌ منهما الآخر. وكان في بلاد البجاة معادن الذهب، فهم يقاسمون من يعمل فيها، ويُؤدّون إلى عمال السلطان في مصر سنوياً أربعمائة مثقالٍ من المعادن الخام.

امتنعت البجاة عن أداء ذلك الخراج سنين متواليةً في أيام المتوكّل، وكان المتوكّل قد ولّى على بريد مصر وبرقة ونواحي المغرب رجلاً من خَدَمه يقال له يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الهادي، وهو

(١) تاريخ الطبري.

المعروف باسم «قوصرة». فكتب يعقوب إلى المتوكل: إن البجاة قد نقضت العهد الذي كان بينها وبين المسلمين، وخرجت من بلادها إلى معادن الذهب والجوهر في الأرض الواقعة على الحدود بين أرض مصر وبلاد البجاة، فقتلوا عدداً من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجوهر، وسبوا عدداً من ذراريهم ونسائهم، وذكروا أن المعادن لهم في بلادهم فحيثما وُجد ذلك المعادن في تلك الجهات فمنطقته من أرضهم، وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها، وأن تصرّفهم هذا قد أخاف جميع من كان يعمل في المعادن من المسلمين، فانصرفوا عنها خوفاً على أنفسهم وذراريهم فانقطع بذلك ما كان يُؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يُستخرج من المعادن، فاشتدّ إنكار المتوكل لذلك وأثار حفيظته، وشاور في أمر البجاة، فَأُنُهِيَ إليه أنهم قوم أهل بدوٍ وأصحاب إبلٍ وماشيةٍ، وأن الوصول إلى بلادهم أمر صعب لا يمكن أن تسلك إليهم الجيوش، لأنها مفازات وصحارى، وبين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهرٍ، في أرضٍ قفرٍ وجبالٍ وعرةٍ، لا ماء فيها ولا زرع ولا معقل، ولا حصن، وأن من يدخلها من رجال السلطان يحتاج أن يتزود لجميع المدة التي يتوقّع

أن يُقيمها في بلادهم إلى أن يخرج إلى أرض الإسلام، فإن امتدّ به المقام حتى يتجاوز تلك المدة هلك وجميع من معه، وأخذتهم البجاة بالأيدي دون المحاربة، وأن أرضهم لا تردّ على السلطان شيئاً من خراجٍ ولا غيره لقفرها وصعوبة الحياة فيها.

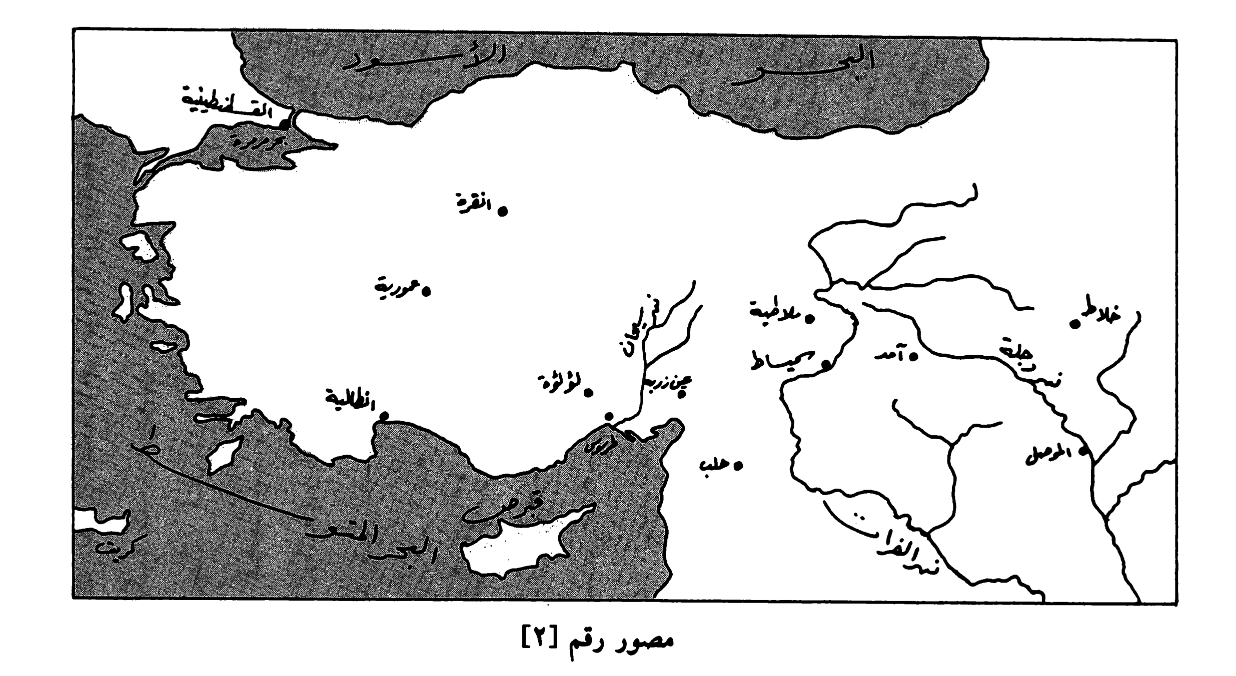
فأمسك المتوكل من التوجيه إليهم، فجعل أمرهم يتزايد، وجُرأتهم على المسلمين تشتدّ حتى خاف أهل الصعيد من أرض مصر على أنفسهم وذراريهم منهم، فولّى المتوكّل محمد بن عبد الله المعروف بالقمّيّ محاربتهم، وولّاه معاون تلك الكور، كور صعيد جنوبي مصر ـ من قنا حتى أسوان، وتقدّم إليه في محاربة البجاة، وأن يُكاتب عنبسة بن إسحاق الضبيّ العامل على الحرب في مصر، وكتب إلى عنبسة بإعطائه جميع ما يحتاج إليه من الجند والشاكرية المقيمين بمصر.

خرج عنبسة إلى أرض البجاة، وانضمّ إليه جميع من كان يعمل في المعادن وكثير من المتطوعين، فكان عدد من سار معه عشرين ألف رجلٍ، بين فارسٍ وراجلٍ، ووجّه إلى السويس فحمل سبعة مراكب في البحر مليئةً بالدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير، وأمر قوماً من أصحابه أن يُبحروا بها حتى يُوافوه في

ساحل البحر من أول أرض البجاة، فلم يزل محمد بن عبد الله القمّيّ يسير في أرض البجاة حتى جاوز منطقة المعادن، وصار إلى حصونهم وقلاعهم، فخرج إليه ملكهم واسمه علي بابا في جيشٍ ضخم يفوق جيش محمد بن عبد الله القمّيّ بأضعافٍ. وكان البجاة على إبلهم ومعهم الحراب، وإبلهم فارهة تشبه المهاري في النجابة، فجعلوا يلتقون أياماً متواليةً، فيتناوشون ولا يصدقون الحرب، وجعل ملك البجاة يتطارد للقمّيّ لكي تطول أيام القتال طمعاً في نفاد الزاد والعلف الذي معهم، فلا يكون لهم قوة، ويموتون هزالاً، فيأخذهم البجاة بالأيدي.

فلما توهّم كبير البجاة أن الأزواد قد نفذت أقبلت المراكب السبعة التي حملها القمّيّ حتى وصلت إلى موضع من سواحل البحر الأحمر يُعرف بـ«صنجة»، فوجّه القمّيّ إلى هناك جماعة من أصحابه يحمون المراكب من البجاة، وفرّق ما كان فيها على أصحابه، فاتّسعوا في الزاد، وزاد عندهم العلف، فلما رأى ذلك علي بابا كبير البجاة قصد لمحاربتهم، وجمع لهم، والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الإبل التي يُقاتلون عليها إبلاً زَعِرة، عندها فزع ورعب من كل شيءٍ، فلما

رأى ذلك القميّ جمع أجراس الإبل والخيل التي كانت في عسكره كله، فجعلها في أعناق الخيل، ثم حمل على البجاة، فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس، واشتدّ رُعبها، فحملتهم إلى الجبال والأودية، فمزّقتهم كل ممزّقٍ، واتبعهم القمّيّ بأصحابه، فأخذهم قتلاً وأسراً حتى أدركه الليل وذلك أول سنة إحدى وأربعين ومائتين، ثم رجع إلى معسكره، ولم يستطع إحصاء القتلى لكثرتهم، فلما أصبح القمّيّ وجدهم قد جمعوا جمعاً من الرجالة، ثم صاروا إلى موضعٍ أمنوا فيه طلب القميّ - حسب ظنّهم - فوافاهم القمّيّ في الليل في خيله، فهرب ملكهم، فأخذ تاجه ومتاعه، ثم طلب علي بابا الأمان على أن يُردّ إلى مملكته وبلاده، فأعطاه القميّ ذلك، فأدّى إليه الخراج للمدة التي كان منعها - وهي أربع سنواتٍ - لكل سنةٍ أربعمائة مثقالٍ، واستخلف علي بابا على مملكته ابنه «لعيس»، وانصرف القميّ بعلي بابا إلى باب المتوكل، فوصل إليه في آخر سنة إحدى وأربعين ومائتين. فأعاده الخليفة على بلاده كما كان، وجعل إلى محمد بن عبد الله القميّ أمر تلك الناحية والنظر في أمرها. فخرج القميّ بعلي بابا، وهو مقيم على دينه، وذُكر أنه كان معه صنماً من حجارةٍ كهيئة الصبيّ يسجد له.


البحر الأسود
القسطنطينية
بحر مرمرة
انقرة
عمورية
ملاطية
خلاط
آمد
نهر دجلة
سميساط
لؤلؤة
نهر جيحان
عين زربة
حلب
الموصل
نهر الفرات
انطالية
قبرص
البحر المتوسط
كريت

مصور رقم [٢]

الفصل الرابع

ولاية العهد ومقتل المُتوكّل

ولاية العهد:

في يوم السبت لثلاثٍ بقين من شهر ذي الحجة من سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين عهد المتوكل لأبنائه الثلاثة من بعده وهم: محمد وسمّاه المنتصر، والزبير وسمّاه المعتزّ، وإبراهيم وسمّاه المؤيّد، وعقد لكل واحدٍ لواءين، أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل.

ضمّ المتوكل إلى المنتصر إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب، وجُند قنّسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية، والعراق، والحرمين، وحضرموت، واليمن، واليمامة والبحرين ومكران والسند، وقُمّ، وقزوين، أي معظم ديار الخلافة.

وضمّ للمعتزّ كور خرسان، وطبرستان، والريّ، وأذربيجان، وأرمينية، وكور فارس، ثم ضمّ إليه سنة أربعين ومائتين خزائن بيوت الأموال في جميع الآفاق، ودور ضرب النقود، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وضمّ للمؤيّد جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين أي بلاد الشام باستثناء ثغورها. فقال في ذلك أبو الغصن الأعرابي:

إنّ ولاة المسلمين الجِلّه
محمّد ثم أبو عبد الله
ثمّت إبراهيم آبي الذِّلّه
بورك في بني خليفة الله

وكتب بينهم كتاباً نسخته:

هذا كتاب كتبه عبد الله جعفر الإمام المتوكّل على الله أمير المؤمنين وأشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وكتّابه وفقهائه وغيرهم من المسلمين لمحمد المنتصر بالله، ولأبي عبد الله المعتزّ بالله، وإبراهيم المؤيّد بالله، بني أمير المؤمنين، في أصالةٍ من رأيه، وعمومٍ من عافية بدنه، واجتماعٍ من فهمه، مختاراً لما شهد به،

متوخياً بذلك طاعة ربّه، وسلامة رعيته واستقامتها وانقياد طاعتها، واتساع كلمتها، وصلاح ذات بينها وذلك في ذي الحجة سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين، أنه جعل إلى محمد المنتصر بالله بن جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين في حياته والخلافة عليهم من بعده، وأمره بتقوى الله التي هي عصمة من اعتصم بها ونجاة من لجأ إليها، وعزّ من اقتصر عليها، فإن بطاعة الله تتمّ النعمة، وتجب من الله الرحمة، والله غفور رحيم. وجعل عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين الخلافة من بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين إلى أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين، ثم من بعد أبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين الخلافة إلى إبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين.

وجعل عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين لمحمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتزّ بالله وإبراهيم المؤيد بالله ابني أمير المؤمنين السمع والطاعة والنصيحة والمشايعة والموالاة لأوليائه والمعاداة لأعدائه، في السرّ والعلن، والغضب والرضا، والمنع والإعطاء، والتمسّك ببيعته، والوفاء

بعهده، لا يبغيانه غائلة، ولا يحاولانه مخاتلة، ولا يمالئان عليه عدواً، ولا يستبدّان دونه بأمرٍ يكون فيه نقض لما جعل إليه أمير المؤمنين من ولاية العهد في حياته والخلافة من بعده.

وجعل عبد الله الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبد الله المعتزّ بالله وإبراهيم المؤيد بالله ابني أمير المؤمنين الوفاء بما عقده لهما، وعهد به إليهما من الخلافة بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين، وإبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين الخليفة من بعد أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين والإتمام على ذلك، وألا يخلعهما ولا واحداً منهما، ولا يعقد دونهما ولا دون واحدٍ منهما بيعةً لولدٍ، ولا لأحدٍ من جميع البريّة، ولا يُؤخّر منهما مقدّماً، ولا يُقدّم منهما مُؤخّراً، ولا ينقصهما ولا واحداً منهما شيئاً من أعمالهما التي ولّاها عبد الله عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين وكل واحدٍ منهما، من الصلاة والمعاون والقضاء والمظالم والخراج والضياع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من حقوق أعمالهما، وما في عمل كل واحدٍ منهما من البريد والطُّرُر وخَزْن

بيوت الأموال والمعاون ودور الضرب وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين، ويجعلها إلى كل واحدٍ منهما، ولا ينقل عن واحدٍ منهما أحداً من ناحيته من القواد والجند والشاكرية والموالي والغلمان وغيرهم، ولا يعترض عليه في شيءٍ من ضياعه وإقطاعاته وسائر أمواله وذخائره وجميع ما في يده، وما حواه وملكت يده من تالدٍ[1] وطارفٍ[2]، وقديمٍ ومستأنفٍ، وجميع ما يستفيده ويُستفاد له بنقص، ولا يحرم ولا يجنف[3]، ولا يعرض لأحدٍ من عماله وكتّابه وقضاته وخدمه ووكلائه وأصحابه، وجميع أسبابه بمناظرةٍ ولا محاسبةٍ، ولا غير ذلك من الوجوه والأسباب كلها، ولا يفسخ فيما وكّده أمير المؤمنين لهما في هذا العقد والعهد، بما يزيل ذلك عن جهته، أو يُؤخّره عن وقته، أو يكون ناقضاً لشيءٍ منه.

وجعل عبد الله جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين إن أفضت إليه الخلافة بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير

---

(١) تالد: المال الموروث.

(٢) طارف: المال المكتسب.

(٣) يجنف: يحيف.

المؤمنين المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين مثل الشرائط التي اشترطها على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين بجميع ما سمّى فيه ووصف في هذا الكتاب، وعلى ما بيّن وفسّر، مع الوفاء من أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين، بما جعله أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين من الخلافة وتسليم ذلك راضياً به ممضياً له، مقدماً ما فيه حق الله عليه وما أمره به أمير المؤمنين، غير ناكثٍ ولا ناكبٍ بذلك، ولا مُبدّلٍ، فإن الله تعالى جدّه وعزّ ذكره يتوعّد من خالف أمره، وعَنَد عن سبيله في مُحكم كتابه ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾[1].

على أن لأبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ولإبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين، الأمان، وهما مقيمان بحضرته أو أحدهما، أو كانا غائبين عنه، أو مجتمعين كانا أو متفرقين، ويستمرّ أبو عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بخراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها، ويستمرّ إبراهيم المؤيّد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨١.

بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بالشام وأجنادها، فعلى محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين أن يمضي أبا عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها، وأن يسلّم له ولايتها وأعمالها كلها وأجنادها والكور الداخلة فيما ولّى جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين أبا عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين، فلا يعوقه عنها، ولا يحبسه قِبَله ولا في شيءٍ من البلدان دون خراسان والكور والأعمال المضمومة إليها، وأن يُعجّل إشخاصه إليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها، مُفْرَداً بها، مفوّضاً إليه أعمالها كلها، لينزل حيث أحبّ من كور عمله، ولا ينقله عنها، وأن يُشخص معه جميع من ضمّ إليه أمير المؤمنين، ويضمّ من مواليه وقواده وشاكريته وأصحابه وكتابه وعماله وخدمه ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وعيالهم وأموالهم، ولا يحبس عنه أحداً، ولا يشرك في شيءٍ من أعماله أحداً، ولا يُوجّه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً، ولا يضرب على يده في قليلٍ ولا كثيرٍ.

وأن يُطْلق محمد المنتصر بالله لإبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين الخروج إلى الشام وأجنادها فيمن

ضمّ أمير المؤمنين ويضمّه إليه من مواليه وقواده وخدمه وجنوده وشاكريته وصحابته وعماله وخدامه ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وأموالهم، ولا يحبس عنهم أحداً، ويسلّم إليه ولايتها وأعمالها وجنودها كلها، لا يعوّقه عنها، ولا يحبسه قِبَله ولا في شيء من البلدان دونها، وأن يُعجِّل إشخاصه إلى الشام وأجنادها والياً عليها، ولا ينقله عنها، وأن عليه له فيمن ضمّ إليه من القواد والموالي والغلمان والجنود والشاكرية وأصناف الناس وفي جميع الأسباب والوجوه مثل الذي اشترط على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين في خراسان وأعمالها على ما رسم من ذلك، وبيّن ولخص، وشرح في هذا الكتاب.

ولإبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين إذا أفضت الخلافة إليه وإبراهيم المؤيّد بالله مقيم بالشام أن يُقرّه بها أو كان بحضرته، أو كان غائباً عنها، أن يمضيه إلى عمله من الشام، ويُسلّم إليه أجنادها وولايتها وأعمالها كلها، ولا يُعوّقه عنها، ولا يحبسه قِبَله ولا في شيءٍ من البلدان دونها، وأن يُعجّل إشخاصه إليها والياً عليها وعلى

جميع أعمالها، على مثل الشرط الذي أخذ لأبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين في خراسان وأعمالها، على ما رسم ووصف وشرط في هذا الكتاب، لم يجعل أمير المؤمنين لواحدٍ ممن وقعت عليه وله هذه الشروط، من محمد المنتصر بالله، وأبي عبد الله المعتزّ بالله، وإبرايهم المؤيد بالله، بني أمير المؤمنين، أن يزيل شيئاً مما اشترطنا في هذا الكتاب، ووكّدنا، وعليهم جميعاً الوفاء به، لا يقبل الله منهم إلا ذلك، ولا التمسّك إلا بعهد الله فيه، وكان عهد الله مسؤولاً.

أشهد اللَّهَ ربَّ العالمين جعفرُ الإمامُ المتوكّلُ على الله أميرُ المؤمنين ومن حضره من المسلمين بجميع ما في هذا الكتاب على إمضائه إياه، على محمد المنتصر بالله، وأبي عبد الله المعتز بالله، وإبراهيم المؤيّد بالله بني أمير المؤمنين بجميع ما سمّى ووصف فيه، وكفى بالله شهيداً ومعيناً لمن أطاعه راجياً، ووفّى بعهده خائفاً وحسيباً، ومعاقباً من خالفه مُعانداً، أو صدف عن أمره مجاهداً.

وقد كُتب هذا الكتاب أربع نسخٍ، وقعت شهادة الشهود بحضرة أمير المؤمنين في كل نسخةٍ منها، في

خزانة أمير المؤمنين نسخة، وعند محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين نسخة، وعند أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين نسخة، ونسخة عند إبراهيم المؤيّد بالله ابن أمير المؤمنين.

وقد ولّى جعفر الإمام المتوكل على الله أبا عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين أعمال فارس وأرمينية وأذربيجان إلى ما يلي أعمال خراسان وكورها والأعمال المتصلة بها والمضمومة إليها، على أن يجعل له على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين في ذلك الذي جعل له في الحياطة في نفسه، والوثاق في أعماله، والمضمومين إليه، وسائر من يستعين به من الناس جميعاً في خراسان والكور المضمومة إليها والمتصلة بها على ما سمّى ووصف في هذا الكتاب[1].

عندما تضعُف الأمة تضعُف الرجولة، وتقلّ الكرامة، ويكثر التزلّف حيث يبرز أصحاب الأطماع، ويظهر الذين يتطلّعون إلى الشهرة، ويبدو الذين يُحبّون الرفعة، وقد يصل الأمر إلى أن ينحرف بعض الناس عن مبادئهم فيما إذا كان هناك تباين في العقيدة بين

(١) تاريخ الطبري.

المتزلفين والممدوحين، وفي مثل هذه الحال يكتب بعضهم دون طلبٍ ويتكلّمون دون دعوةٍ، فيا لذلّ المتزلّفين ويا لشقاء المنحرفين وما أصبرهم على النار.

قال إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول يمدح بني المتوكل الثلاثة: المنتصر، والمعتزّ، والمؤيّد:

أضحت عُرا الإسلام وهي منوطةٌ
بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفةٍ من هاشمٍ وثلاثةٍ
كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره
يكنفْنَ مطلعَ سَعْدِهِ بسعوده
كَنَفَتْهُمُ الآباءُ واكتنفت بهم
فسعوا بأكرم أنفسٍ وجدود

وله في المعتزّ بالله:

أشرق المشرق بالمعـ
ـتزّ بالله ولاحا
إنما المعتزّ طِيبٌ
بُثّ في الناس ففاحا

وله أيضاً فيهم:

الله أظـــــهـــــر ديــــــنــــــه
وأعـــزّه بـــمـــحـــمّـــد
والله أكـــرم بـــالـــخـــلا
فـــة جـعـــفـــر بـــن مـــحـــمّـــد
والله أيّـــــد عـــــهـــــده
بـــمـــحـــمّـــدٍ ومـــحـــمّـــد
ومـــؤيّـــد لـــمـــؤيَّـــدَيْـــن
إلـــى الـــنـــبـــيّ مـــحـــمّـــد(١)

مقتل المتوكّل:

رأى المتلوّنون أن العاطفة الإسلامية في الأمة قويّة جيّاشه لذا فالحركات المخالفة للإسلام والمعادية للعقيدة تُقاوَم بشدّةٍ، وأن الحماسة ضدّها عنيفة، وأن النهوض لوأدها في مهدها شديد، ومن هنا فشلت الحركات التي كان هدفها إثارة الشكوك ومحاولة الهدم رغم ما بذله المتلوّنون لها من جهدٍ، وما قدّموا من تضحياتٍ، وكانوا وراءها بإمكاناتهم كلها كحركة بابك الخرميّ وأمثالها، لذا يجب الابتعاد عن دعم مثل هذا، وترك هذا المخطط.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

ورأى المتلوّنون أن استغلال العاطفة الدينية بادّعاء احتضان فريقٍ من آل البيت وإظهار الارتباط به وإعلان الدعوة له لا يمكن الإفادة منه أيام العباسيين، وإذا كان له بعض الأثر أيام الأمويين لعدم صلتهم المباشرة مع آل البيت وللمنافسة التي كانت قائمةً في الجاهلية بين فرعي بني عبد مناف ولبعض مواقف رجالات من بني أمية من الدعوة قبل إسلامهم حيث يمكن إبراز مواقف هؤلاء الرجال والتركيز عليها واستغلال عواطف العامة ومحاولة الابتعاد عن المبدأ الإسلامي أن الإسلام يجبّ ما كان قبله. أما أيام العباسيين فلا يمكن هذا لأن العباسيين فرع من آل البيت فهم والطالبيون سواء من ناحية عاطفة المسلمين نحوهم، ومع الاعتراف بأن العاطفة أقوى نحو آل علي من فاطمة، رضي الله عنها، بصفتها بنت رسول الله ﷺ، غير أن المتلوّنين يخصّون آل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وخاصةً من علي زين العابدين، ويهملون آل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وذلك لأن أم علي زين العابدين هي سلافة بنت يزدجرد، وهذا ما جعل حصر الإمامة التي ابتدعوها بأبناء علي زين العابدين. والمهمّ أن المتلوّنين قد أدركوا أن إثارة العاطفة الإسلامية نحو آل البيت؛ لدى العامة إن ظهرت نتائجها نسبياً أيام بني أمية لكنها لم

تُعط تلك النتائج أيام العباسيين بصفتهم من آل البيت لذا لا يمكن طرحها دائماً بل في أحداثٍ خاصةٍ.

ورأى المتلوّنون أن محاولة العمل لهدم العقيدة الإسلامية من الداخل بوضع أفكارٍ غريبةٍ فيها، كالإمامة، والوراثة فيها، وحصرها في شخصٍ معينٍ، وإعطاء الذين يحملون هذا اللقب صفات فوق مستوى البشر كنوعٍ من التقديس وتشبيه بما أعطاه النصارى للمسيح عليه السلام. ووجد المتلوّنون أن هذا لا يمكن طرحه بالفتن التي يُشعلونها، وإن كان لا يصحّ تركه والتخلّي عنه أبداً في سبيل تشويه العقيدة حيث تتوارثه الأجيال وتُحافظ عليه، ولو كان عاطفةً، غير أن هناك مولّداً دائماً لا يهدأ يُشعله الذين لم تتقبّل قلوبهم الإسلام وإن أظهرته ألسنتهم، فالعامة تأخذ هذا عاطفةً ثم يرسخ في النفوس، وترثه الأبناء، ويغدو مع الزمن من العقيدة، ويكفي هذا تشويهاً.

ورأى المتلوّنون أن أهم عملٍ للفتنة في سبيل إضعاف المسلمين إنما هو بثّ الخلاف بين أبناء الأسرة التي تتولّى الخلافة، خلاف لا يلتئم، وجراح لا تُضمّد، وصراع لا تنتهي آثاره مع الانتباه إلى عدة ملاحظات:

١" ـ السعي لبقاء الأعداء وأولهم الروم في حالة هدوءٍ، فلا يندفعون للقتال، ولا تأخذهم الحماسة للثأر، ولا تحملهم الأحقاد للهجوم وتحرّك الجيوش لأن مجرد وقوع مثل هذا سيعود للمسلمين تماسكهم، وترتفع راية الجهاد، ويكفي هذا لوحدة الأمة وتحقيق النصر.

٢" ـ السعي لإبقاء المتعصّبين للعقائد الجاهلية، ولحكومات الأمم السابقة في حالة سكونٍ، وكتمانٍ تامٍ حيث لا يمكن أن تقوم حركة لهؤلاء حتى ينهض المسلمون ذائدين عن عقيدتهم التي لا تسمح بوجود عقيدةٍ لا تؤمن بالله في مجتمعها، وهذا ما يُعيد للمسلمين نشاطهم وقوتهم.

٣" ـ السعي لزجّ عناصر من أرومةٍ جديدةٍ توقع الخلاف وتُثير الفتنة، لأن العناصر القديمة التي أشعلت نار الفتن في السابق، وأوقعت الصراع في الماضي تنتمي إلى أرومةٍ خاصةٍ لُوّثت بما حدث، ووضعت عليها إشارات استفهام، إذ شاركت فعلاً بعددٍ من الحركات الظاهرة العداوة، وساهمت بأكبر الأحداث حتى فاحت الروائح، وعُرفت الدوافع، وإن غُطّيت بادعاءاتٍ، وشوّهت بافتعال أحداثٍ . . .

ورأى المتلوّنون زجّ العناصر التركية بأَتون الأحداث، ورميهم بأطراف الخلافات، وجعلهم وقود الفتن ومشعل نارها، ومثيري لهبها، إذ أصبحوا أصحاب مكانةٍ تُؤهّلهم للقيام بهذه المهمات، ورجال قيادة تخوِّلهم أداء الدور.

رأى المتلوّنون أن رجال الأتراك، وإن كانوا قادةً، هم أصحاب عاطفةٍ واندفاعٍ وراء ما يرونه، وأهل شجاعةٍ لتحقيق ما يرغبون، وعندهم عجالة مع حماقةٍ، وانفعال مع عدم تدبيرٍ. إذن على المتلوّنين التخطيط ليكون القادة الأتراك رؤوس الحراب لإثارة الفتن.

كان المتوكل قد عهد لأبنائه الثلاثة من بعده: المنتصر فالمعتزّ فالمؤيّد فكان المخطط أن تكون الفتنة بين هؤلاء الإخوة على الخلافة. وبدأ العمل لإيقاع الخلاف بين الأب والأبناء وبين الإخوة فيما بينهم، والمنفّذ هم القادة الأتراك، والمخطِّط والمحرِّك هم المتلوّنون.

كان المتوكل قد أمر بإنشاء الكتب بأخذ ضياع القائد وصيف التركي الكائنة في أصبهان والجبل

وإقطاعها إلى الفتح بن خاقان[1]، فكُتبت الكتب بذلك، وصارت إلى الخاتم على أن تُنفّذ يوم الخميس لخمسٍ خلون من شهر شعبان سنة سبعٍ وأربعين ومائتين، فبلغ ذلك وصيفاً، واستقرّ عنده الذي أمر به في موضوعه، فأسرّ ذلك في نفسه، وأخذ يُدبّر لأمره.

وقرّر المتوكل أن يصلّي بالناس في آخر يوم جمعةٍ من شهر رمضان، وقد شاع هذا في المجتمع من بداية الشهر، فاجتمع الناس لذلك واحتشدوا، وخرج بنو هاشمٍ من بغداد لرفع قضاياهم إليه ومكالمته إذا هو ركب. فلما كان يوم الجمعة أراد الركوب للصلاة، فقال له عبيد الله بن يحيى[2] والفتح بن خاقان: يا أمير

---

(١) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد: أديب، شاعر، فصيح، كان في غاية الفطنة والذكاء، فارسي الأصل من أبناء الملوك، اتخذه المتوكل أخاً واستوزره، وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه، وكان يقدمه على أهله وولده، وكانت عنده خزانة كتبٍ رائعةٍ، وله عدة مؤلفات منها: اختلاف الملوك. والصيد والجوارح، والروضة والزهر. قُتل مع المتوكل. دخل الخليفة المعتصم على الأمير خاقان، فمازح ابنه الفتح هذا، وهو صبي، فقال: يا فتح، أيما أحسن داري أو داركم؟ فقال الفتح: دارنا إذا كنت فيها. فوهبه مائة ألف.

(٢) عبيد الله بن يحيى بن خاقان، أبو الحسن: وزير، من=

المؤمنين، إن الناس قد اجتمعوا وكثروا، من أهل بيتك وغيرهم، وبعضٌ متظلّم وبعضٌ طالب حاجةٍ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهود بالصلاة، ونكون معه جميعاً فليفعل. فقال: قد رأيت ما رأيتما، فأمر محمد المنتصر بالصلاة، فلما نهض المنتصر ليركب للصلاة، قالا: يا أمير المؤمنين قد رأينا رأياً، وأمير المؤمنين أعلى عيناً، قال: وما هو؟ اعرضاه عليّ، قالا: يا أمير المؤمنين، مُر أبا عبد الله المعتزّ بالله بالصلاة لتُشرّفه بذلك في هذا اليوم الشريف، فقد اجتمع أهل بيته، والناس جميعاً فقد بلغ الله به.

وكان قد وُلد للمعتزّ قبل ذلك بيومٍ مولود، فأمر المعتزّ فركب فصلّى بالناس، فأقام المنتصر في منزله ـ وكان بالجعفرية ـ وكان ذلك مما زاد بإغرائه به، فلما فرغ المعتزّ من خطبته قام إليه عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان، فقبّلا يديه ورجليه، وفرغ المعتزّ من الصلاة فانصرف وانصرفا معه، ومعهم الناس في موكب

= المقدمين في العصر العباسي، استوزره المتوكل والمعتمد، وكان عاقلاً حازماً، بقي في الوزارة إلى أن توفي سنة ٢٦٣هـ. وهو ابن أخي الفتح بن خاقان.

الخلافة، والناس بين يديه حتى دخل على أبيه وهما معه، ودخل معه داود بن محمد بن أبي العباس الطوسي، فقال داود: يا أمير المؤمنين، ائذن لي فأتكلم، قال: قل، فقال: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت الأمين والمأمون ورأيت المعتصم، ورأيت الواثق بالله، فوالله ما رأيت رجلاً على منبرٍ أحسن قواماً، ولا أحسن بداهةً، ولا أجهر صوتاً، ولا أعذب لساناً، ولا أفضل خطابةً من المعتزّ بالله، أعزّه الله يا أمير المؤمنين ببقائك، وأمتعنا الله وإياك بحياته! فقال له المتوكل: أسمعك الله خيراً، وأمتعنا الله بك، فلما كان يوم الأحد، وذلك يوم الفطر وجد المتوكل في نفسه فتوراً، فقال: مروا المنتصر فليصل بالناس، فقال له عبيد الله بن يحيى بن خاقان: يا أمير المؤمنين قد كان الناس تطلعوا إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا، فلم يركب أمير المؤمنين، ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجُف الناس بعِلّته، ويتكلّموا في أمره، فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأولياء ويكبت الأعداء بركوبه فعل. فأمرهم بالتأهّب والتهيّؤ لركوبه، فركب فصلى بالناس، وانصرف إلى منزله، فأقام يومه ذلك ومن الغد لم يدعُ أحداً من أعوانه.

وذُكر أنه ركب يوم الفطر، وقد ضُربت له المصاف نحواً من أربعة أميالٍ، وترجّل الناس بين يديه، فصلّى بالناس، ورجع إلى قصره، فأخذ حفنةً من ترابٍ، فوضعها على رأسه، فقيل له في ذلك، فقال: إني رأيت كثرة هذا الجمع، ورأيتهم تحت يدي، فأحببت أن أتواضع لله عزّ وجلّ، فلما كان من غد يوم الفطر لم يدعُ أحداً من جلسائه، فلما كان اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء لثلاثٍ خلون من شوال أصبح نشيطاً فرحاً مسروراً، فقال: كأني أجد مسّ الدم، فقال الطيفوريّ وابن الأبرش ـ وهما طبيباه: يا أمير المؤمنين، عزم الله لك على الخير افعل، ففعل، واشتهى لحم جزورٍ، فأمر به فأُحضر بين يديه، ودعا الناس للأكل.

كان المتوكل في أحد الأيام مسروراً، فأخذ مجلسه، ودعا جلساءه فحضروا، وأهدت إليه قبيحة أم ولده المعتزّ مُطرَف خزٍّ أخضر، لم ير الناس مثله حسناً، فنظر إليه فأطال النظر، فاستحسنه وكثر تعجّبه منه، وأمر به فقُطع نصفين، وأمر بردّه عليها، ثم قال لرسولها: أذكرتني به، ثم قال: والله إن نفسي لتحدّثني أني لا ألبسه، وما أحب أن يلبسه أحد بعدي، وإنما

أمرت بشقّه لئلا يلبسه أحد بعدي، فقلنا له: يا سيدنا، هذا يوم سرور يا أمير المؤمنين نعيذك بالله أن تقول هذا، فكان يقول: أنا والله مفارقكم عما قليل.

وكثر كلام بعضهم للمتوكل عن ابنه المنتصر حتى صار يشتمه ويلطمه أمام الأشهاد. وفي مجلسٍ التفت المتوكل إلى الفتح بن خاقان وقال له: برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله ﷺ، إن لم تلطمه - يعني المنتصر - فقام الفتح ولطمه مرتين. ثم قال المتوكل لمن حضر: اشهدوا جميعاً أني قد خلعت المستعجل - المنتصر - ثم التفت إليه وقال: سمّيتك المنتصر، فسمّاك الناس لحمقك المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عليّ مما تفعله بي. ثم أمر المتوكل بالعشاء فأُحضر، فخرج المنتصر من عنده، فأمر المتوكل بُناناً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه، ويرى ماذا يفعل ويتصرّف، فتبعه يراقبه.

ولما خرج المنتصر واتجه إلى حجرته أخذ بيد غلامه زرافة، وقال له: امضِ معي، فقال: يا سيدي، إن أمير المؤمنين لم يقم. فقال: اذهب فإن بغا يخرج الساعة وكذا الجلساء. وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك

إليّ، فإن «أوتامش» سألني أن أُزوّج ابنه من ابنتك، وابنك من ابنته، فقال له زرافة: نحن عبيدك يا سيدي، فمرنا بأمرك، وأخذ المنتصر بيده وانصرف به معه إلى حجرته.

فذكر بُنان غلام أحمد بن يحيى أن المنتصر قال له: قد أملكتُ ابن زرافة من ابنة أوتامش وابن أوتامش من ابنة زرافة. قال بُنان: فقلت للمنتصر: يا سيدي، فأين النثّار فهو يُحسن الإملاك؟ فقال: غداً إن شاء الله، فإن الليل قد مضى.

وانصرف «زرافة» إلى غرفة «تمرة»، فلما دخل دعا بالطعام فأُتي به، فما أكل إلا شيئاً يسيراً حتى سمعنا الضجة والصراخ، فقمنا، وخرج زرافة من غرفة تمرة، إذا بُغا استقبل المنتصر، فقال المنتصر: ما هذه الضجة؟ قال: خيراً يا أمير المؤمنين، قال: ما تقول؟ ويلك! قال: أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين! كان عبداً لله دعاه فأجابه. فجلس المنتصر، وأمر بباب البيت الذي قُتل فيه المتوكل والمجلس، فأُغلق، وأُغلقت الأبواب كلها، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتزّ والمؤيد عن رسالة المتوكل.

وذُكر أن المتوكل دعا بالمائدة بعد قيام المنتصر

ومعه زرافة. وكان بُغا الصغير المعروف بالشرابي قائماً عند الستر، وكان ذلك اليوم نوبة بُغا الكبير في الدار، غير أنه كان يومئذ بالثغور في سميساط، وكان خليفته في الدار ابنه موسى، وموسى هذا هو ابن خالة المتوكل. فدخل بُغا الصغير وأمر الجلساء بالانصراف إلى منازلهم، فقال له الفتح بن خاقان: ليس هذا وقت انصرافهم، وأمير المؤمنين لم يقم، فقال له بغا: إن أمير المؤمنين أمرني ألا أترك أحداً في المجلس، وهو متعب، فكره الفتح قيامهم، فقال له بغا: إن حُرم أمير المؤمنين خلف الستارة، وهو متعب، فقوموا فاخرجوا، فخرجوا جميعاً، فلم يبق في المجلس سوى الفتح بن خاقان، وعثعث، وأربعةٍ من خَدَم الخاصة، وهم: شفيع، وفرج الصغير، ومؤنس، وأبو عيسى مارد المحْرِزيّ. ووضع الطباخ المائدة أمام المتوكل فجعل يأكل.

وذكر «عثعث» أن أبا أحمد بن المتوكل أخا المؤيّد لأمه كان معهم في المجلس، فقام إلى الخلاء، وقد كان بُغا الشرابي أغلق الأبواب كلها غير باب الشطّ، ومنه دخل القوم الذين عُيّنوا لقتله، فبصُر بهم أبو أحمد، فصاح بهم: ما هذا يا سفلة! وإذا بسيوفٍ

مستلّقٍ، وقد تقدّم النفر الذين تولّوا قتله: بغلون التركي، وباغر، وموسى بن بُغا، وهارون بن صوارتكين، وبغا الشرابي، فلما سمع المتوكل صوت ابنه أبي أحمد رفع رأسه، فرأى القوم، فقال: يا بغا، ما هذا؟ قال: هؤلاء رجال النوبة التي تبيت على باب سيدي أمير المؤمنين، فرجع القوم إلى الوراء عند كلام المتوكل لبغا، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم بعد. فقال بُغا لهم: يا سفل، أنتم مقتولون لا محالة، فموتوا كراماً، فرجع القوم إلى المجلس، فابتدره بغلون فضربه ضربةً على كتفه وأُذُنه فقدّه، فقال: مهلاً قطع الله يدك، ثم قام وأراد الوثوب إليه، فاستقبله بيده فأبانها، وشاركه باغر، فقال الفتح بن خاقان: ويلكم، أمير المؤمنين! فقال بُغا: يا حَلَقيّ ألا تسكت، فرمى الفتح بنفسه على المتوكل، فبعجه هارون بسيفه، فصاح: الموت! فاعتوره هارون وموسى بن بُغا بأسيافهما، فقتلاه وقطّعاه، وأصابت عثعثَ ضربة في رأسه. وكان مع المتوكل خادم صغير، فدخل تحت الستارة، فنجا، وتهارب الباقون. وكانوا قد قالوا لوصيف في الوقت الذي جاءوا فيه إلى المتوكل: كن معنا فإنا نتخوّف ألا يتمّ ما نريد فنقتل، فقال: لا بأس عليكم، فقالوا له: فأرسل معنا بعض ولدك، فأرسل معهم خمسةً من ولده:

صالحاً، وأحمد، وعبد الله، ونصراً، وعبيد الله، حتى صاروا إلى ما أرادوا.

وقيل: لما دخل القتلة على المتوكل قام الفتح بن خاقان في وجوههم، فقال لهم: يا كلاب وراءكم وراءكم، فبدر إليه بغا الشرابي فبعج بطنه بالسيف، وبدر الباقون إلى المتوكل، وهرب عثعث على وجهه. وكان أبو أحمد بن المتوكل في غرفته، فلما سمع الضجة خرج فوقع على أبيه، فبادره بغلون فضربه ضربتين، فلما رأى السيوف تأخذه خرج وتركهم، وخرج القوم إلى المنتصر، فسلّموا عليه بالخلافة، وقالوا: مات أمير المؤمنين، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف، فقالوا له: بايع، فبايعه، وأرسل المنتصر إلى وصيف: إن الفتح بن خاقان قتل أبي، فقتلته، فاحضر في وجوه أصحابك، فحضر وصيف وأصحابه فبايعوا. وكان عبيد الله بن يحيى بن خاقان في حجرته لا يعلم بشيءٍ من أمر القوم، ينفذ أمور الخلافة.

وذُكر أن امرأةً من نساء الأتراك ألقت رقعةً تُخبر ما عزم عليه القوم، فوصلت الرقعة إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فشاور الفتح فيها، وكان ذلك وقع إلى أبي نوح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بن خاقان،

فأنهاه إلى الفتح، فاتفق رأيهم على كتمان الخبر عن المتوكل لِما رأوا من سروره، فكرهوا أن يُنغّصوا عليه يومه، وهان عليهم أمر القوم، ووثقوا بأن ذلك لا يجسر عليه أحد ولا يقدر.

واحتال أبو نوح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بن خاقان في الهرب من ليلته، وعبيد الله بن يحيى جالس في عمله ينفذ الأمور، وبين يديه جعفر بن حامد، إذ طلع عليه بعض الخدم، فقال: يا سيدي، ما يُجلسك؟ قال: وما ذاك! قال: الدار سيف واحد، فأمر جعفراً بالخروج، فخرج وعاد، فأخبره أن أمير المؤمنين والفتح بن خاقان قد قتلا، فخرج فيمن معه من خدمه وخاصّته، فأُخبر أن الأبواب مغلقة، فأخذ نحو الشطّ، فإذا أبوابه أيضاً مغلقة، فأمر بكسر ما كان مما يلي الشطّ، فكُسرت ثلاثة أبوابٍ حتى خرج إلى الشطّ، فصار إلى زورقٍ، فقعد فيه ومعه جعفر بن حامد وغلام له، فصار إلى منزل المعتزّ، فسأل عنه فلم يجده، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قتلني وقتل نفسه، وتلهّف عليه.

اجتمع إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان أصحابه غداة يوم الأربعاء لأربعٍ خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ،

من الأبناء والعجم والأرمن والأعراب والصعاليك وغيرهم فكانوا ثلاثة عشر ألف رجلٍ، فقالوا له: إنما كنت تصطنعنا لهذا اليوم، فأمر بأمرك وائذن لنا نمل على القوم ميلةً، نقتل المنتصر ومن معه من الأتراك وغيرهم، فأبى ذلك، وقال: ليس في هذا حيلة، والمعتزّ في أيديهم.

قُتل المتوكل ليلة الأربعاء بعد العتمة بساعةٍ لأربعٍ خلون من شهر شوال سنة سبعٍ وأربعين ومائتين. فكان عمره اثنتين وأربعين سنةً. وكانت خلافته أربع عشرة سنةً وعشرة أشهرٍ وعشرين يوماً.

وقد رثاه البحتري بقصيدةٍ جيدةٍ، ويقال: إنه قد شهد مصرعه إذ كان حاضراً، ولكن لم ينله أذىً إذ اختبأ، رغم ما يبديه من شجاعةٍ في قصيدته التي رثاه بها، فقال:

محل على «القاطول» أخلق داثره

وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره(١)

---

(١) القاطول: المقطع. قطع مكان من النهر، وأقيم فوقه البناء. أخلق: بلي. الداثر: البالي. تغاوره: تتبادل معه الغارات.

كأنّ الصبا توفي نذوراً إذا انبرتْ
تُـراوِحُـهُ أذيـالُـهـا وتُـبـاكـره[1]
ورُبَّ زمـانٍ نـاعـمٍ ثـمّ عـهـدُهُ
تَـرِقّ حـواشـيـه ويـونَـقُ نـاضـره[2]
تغيّر حسن «الجعفريّ» وأُنْسه
وقوّض بادي «الجعفريّ» وحاضره[3]
تـحـمّـل عـنـه سـاكـنـوه فـجـاءةً
فـعـادت سـواء دوره ومـقـابـره
إذا نـحـن زرنـاه أجـدّ لـنـا الأسـى
وقـد كـان قـبـل الـيـوم يَـبْـهَـجُ زائـره
ولم أَنْسَ وحشَ القصر إذا ريع سِرْبُهُ
وإذ ذُعـرت أطـلاؤه وجـآذره[4]
وإذ صـيـح فـيـه بـالـرحـيـل فـهُـتِّـكـت
عـلـى عـجـلٍ أسـتـاره وسـتـائـره
ووحـشـتـه حـتـى كـأن لـم يـقـم بـه
أنـيـس، ولـم تـحـسُـن لـعـينٍ مـنـاظـره

---

(١) تراوحه: تأتي إليه بالرواح. تباكره: تأتي إليه باكراً.
(٢) يونق: يُشرق.
(٣) قوّض: هدم. البادي: جهة البادية. الحاضر: جهة الحضر.
(٤) الأطلاء: صغار الظباء والشياه. الجآذر: صغار الأبقار ومفردها جؤذر.

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً
بشاشتها، والمُلك يُشْرِقُ زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها
وبهجتها والعيش غضّ مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت
بهيبتها أبوابه ومقاصره؟
وأين عميد الناس في كل نوبةٍ
تنوب، وناهي الدهر فيهم وآمره؟[1]
تخفّى له مُغتاله تحت غِرّةٍ
وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنونَ جنودُه
ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر «المعتزّ» من كان يُرتجى
له، وعزيز القوم من عزّ ناصره
تعرّض ريب الدهر من دون «فتحه»
وغيّب عنه في خراسان «طاهره»[2]
ولو عاش ميت أو تقرّب نارح
لدارت من المكروه ثَمَّ دوائره

---

(١) عميد الناس: هنا رئيس الحرس. نوبة: المدة التي يتناوب فيها حرس القصر ورئيسهم.
(٢) فتحه: الفتح بن خاقان، وزير المتوكل، وقد قُتل معه.

ولـو «لـعـبـيـد الله» عـون عـلـيـهـم
لـضـاقـت عـلـى ورّاد أمـرٍ مـصـادره
حـلـوم أضـلّـتـهـا الأمـانـي، ومـدّة
تناهـت، وحـتـف أوشـكـتـه مـقـادره
ومغتصَبٌ للقتل لـم يـخش رهطه
ولـم يـحـتـشـم أسـبـابـه وأواصـره[1]
صـريـع تـقـاضـاه الـسـيـوف حـشـاشـةً
يـجـود بـهـا والـمـوت حـمـر أظـافـره
أدافـع عـنـه بـالـيـديـن، ولـم يـكـن
ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
درى الفاتك العجلان كيف أساوره[2]
حرام عليّ السهو[3] بعدك أو أرى
دماً بدمٍ يجري على الأرض مائره

---

(١) مَغْتَصَبٌ للقتل: المتوكل نفسه.
(٢) أُساوره: أُغالبه.
(٣) السّهو: ترد في الكتب كافةً «الراح» ويقصد بها الخمر أي أن البحتري والمتوكل كانا على شراب الخمر، وذلك للقول: إن الخلفاء كانوا يبيحون الخمر، ولا يتقيدون بتعاليم الإسلام. والبحتري يحرّم على نفسه الخمر لغياب من كان يشرب معه. وكلمة «الراح» وضعت دسّاً.

وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر
يد الدهر والموتور بالدم واتره
أكان وليُّ العهد أضمر غدرةً؟
فمن عجبٍ أن وُلّي العهد غادره
فلا مُلّي الباقي تراث الذي مضى،
ولا حملت ذاك الدعاء منابره[1]
ولا وأل المشكوك فيه، ولا نجا
من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره[2]
لنعم الدم المسفوح ليلة «جعفرٍ»
هرقتم، وجنح الليل سود دياجره[3]
كأنكم لم تعلموا مَنْ وليُّه
وناعيه تحت المرهفات وثائره
وإني لأرجو أن تردّ أموركم
إلى خلفٍ من شخصه لا يغادره
مُقلِّب آراءٍ تُخاف أناته
إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

---

(١) مُلّي: تمتع. يدعو البحتري على الخليفة الجديد وهو المنتصر ألا يتمتع بالتراث الذي خلّفه له أبوه.

(٢) وأل: نجا.

(٣) الدياجر: الظلام الشديد الظلمة.

الفصل الخامس
شخصيّة المتوكّل

• كان المتوكل أسمر، حسن العينين، نحيف الجسم، خفيف العارضين، أقرب إلى القصر.

• أظهر الميل إلى السُّنّة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وذلك في سنة أربعٍ وثلاثين ومائتين، واستقدم المحدّثين إلى سامراء، وأجزل عطاياهم، وأكرمهم، وأمرهم أن يتحدّثوا بالأحاديث التي فيها الردّ على المعتزلة والجهميّة فكان منهم مصعب بن عبد الله الزبيري[1]، وإسحاق بن أبي

---

(١) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير حواريّ رسول الله ﷺ: ولد سنة ستٍ وخمسين ومائة بالمدينة، وكان أبوه أميراً على اليمن. كان مصعب علّامةً نسّابةً إخبارياً فصيحاً، من نبلاء الرجال وأفرادهم. وكان وجه قريشٍ مروءةً وعلماً وشرفاً وبياناً وقدراً وجاهاً. وكان شاعراً وثقةً في الحديث. =

إسرائيل[1]، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وأبو بكر بن أبي شيبة[2]، ....

= سمع أباه، ومالك بن أنس، والضحاك بن عثمان، وإبراهيم بن سعد، وعبد العزيز الداراوردي، وهشام بن عبد الله المخزومي، وسفيان بن عيينة و. . . وحدّث عنه: ابن ماجه، والزبير بن بكار القاضي ابن أخيه، وأبو يعلى الموصلي، وموسى بن هارون، وأبو القاسم البغوي، وأبو العباس السراج.

وروى عنه مسلم وأبو داود في غير كتابيهما.

تفرّد مصعب الزبيري بحديث: (التمسوا الرزق في خبايا الأرض) رواه عن هشام بن عبد الله المخزومي عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة.

سكن مصعب بغداد وتوفي بها سنة ستٍ وثلاثين ومائتين في شهر شوال، وقد عاش ثمانين سنةً.

(١) إسحاق بن أبي إسرائيل إبراهيم، الإمام الحافظ الثقة: ولد سنة خمسين ومائة، حدّث عنه أبو داود، ومحمد بن إسماعيل البخاري في كتاب «الأدب المفرد»، وأبو بكر أحمد بن علي المروزيّ، وموسى بن هارون، وأبو يعلى الموصلي، وعبد الله بن ناجية، وأبو العباس الثقفي، وأبو حامد الحضرمي، وأبو القاسم البغوي، وأحمد بن القاسم الفرائضي. توفي بسامراء في شهر شعبان سنة خمسٍ وأربعين ومائتين.

(٢) أبو بكر بن أبي شيبة: هو عبد الله بن محمد بن القاضي أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن خواستي: الإمام العلم، سيد الحفاظ، وصاحب الكتب الكبار: المسند، والمصنف، =

وعثمان بن أبي شيبة[١]، وقد جلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف رجلٍ، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور في مدينة السلام فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف رجلٍ، وتوفّر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له لمنع القول بخلق القرآن، ووقف امتحان العلماء بذلك، وقد قال أبو بكر ابن الخبازة في ذلك:

وبَعْدُ فإن السُّنّة اليوم أصبحت
معزّزةً حتى كأنْ لم تُذلّلِ

= والتفسير، أبو بكر العبسي مولاهم الكوفي.
طلب العلم وهو صبيّ، وهو من أقران أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني في السن والمولد والحفظ، ويحيى بن معين أسنّ منهم بسنواتٍ.
حدّث عنه الشيخان، وأبو داود، وابن ماجه، وروى النسائي عن أصحابه. وأولاده من أهل العلم، وأخوه عثمان من الحفّاظ. وتوفي أبو بكر بن أبي شيبة سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين. وكان مولده سنة تسعٍ وخمسين ومائة.

(١) عثمان بن أبي شيبة: أخو أبي بكر بن أبي شيبة، وعثمان أكبر سناً حيث ولد سنة ستٍ وخمسين ومائة أي أكبر من أخيه بثلاث سنواتٍ، وتوفي بعده بأربع سنواتٍ أي سنة تسعٍ وثلاثين ومائتين. رحل عثمان من الكوفة إلى مكة وبغداد والريّ وصنّف الكتب.

تصول وتسطو إذ أُقيم منارها
وحُطّ منارُ الإفك والزور من عَلِ
وولّى أخو الإبداع في الدين هارباً
إلى النار يهوي مدبراً غير مقبل
شفى الله منهم بالخليفة جعفرٍ
خليفته ذي السُّنّة المتوكّل
خليفة ربي وابن عمّ نبيّه
وخير بني العباس مَنْ منهمُ وَلِي
وجامع شمل الدين بعد تشتّتٍ
وفاري رؤوس المارقين بمنصل
أطال لنا ربُّ العباد بقاءه
سليماً من الأحوال غير مبدل
وبوّأه بالنصر للدين جَنّةً
يُجاور في روضاتها خير مرسل

• هدم قبر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، سنة ستٍّ وثلاثين ومائتين لما كان يجري حوله من بدعٍ.

• بعث إلى نائب مصر سنة سبعٍ وثلاثين ومائتين يأمره أن يحلق لحية قاضي القضاة بمصر: أبي بكر محمد بن أبي الليث، وأن يضربه، ويطوف به على حمارٍ، ففعل ـ ونعم ما فعل ـ فإنه كان ظالماً من

رؤوس الجهمية، وولى القضاء مكانه الحارث بن سكين من أصحاب مالك، بعد تمنّعٍ، وأهان القاضي المعزول بضربه كل يوم عشرين سوطاً ليردّ الظلامات إلى أهلها.

• كان المتوكل جواداً ممدحاً، فيقال: ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى المتوكل، وفيه يقول مروان بن أبي الجنوب[1]:

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد
فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

فقال له: لا أمسك حتى يغرقك جودي، وكان قد أجازه على قصيدةٍ مائةً وعشرين ألفاً.

• قال هشام بن عمار: سمعت المتوكل يقول: واحسرتاه على محمد بن إدريس الشافعي، كنت أُحبّ أن أكون في أيامه فأراه وأشاهده، وأتعلم منه، فإني رأيت رسول الله ﷺ، في المنام، وهو يقول: يا أيها

---

(١) مروان بن يحيى (أبي الجنوب) بن مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة: والٍ، من الشعراء، كنيته أبو السمط، ويلقب «غبار العسكر» لبيتٍ قاله. ويعرف بمروان الأصغر تمييزاً له عن جده. مدح المأمون والمعتصم والواثق، وحسنت حاله عند المتوكل، وقلّده المتوكل اليمامة والبحرين وطريق مكة. وتوفي مروان بن أبي الجنوب سنة ٢٤٠هـ.

الناس إن محمد بن إدريس الشافعيّ المطلبي قد صار إلى رحمة الله، وخلّف فيكم علماً حسناً فاتبعوه تُهدوا، ثم قال: اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمةً واسعةً، وسهِّل على حفظ مذهبه، وانفعني بذلك. فأخذ المتوكل بمذهب الشافعيّ، وهو أول من تمذهب له من الخلفاء.

• وجّه المتوكل إلى أحمد بن المعدل وغيره من العلماء، فجمعهم في داره، ثم خرج عليهم، فقام الناس كلهم غير أحمد بن المعدل، فقال المتوكل لعبيد الله: إن هذا لا يرى بيعتنا، فقال له: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن في بصره سوءاً، فقال أحمد بن المعدل: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوءاً، ولكن نزهّتك من عذاب الله. قال النبي ﷺ: (من أحبّ أن يتمثّل له الرجال قياماً فليتبوّأ مقعده من النار) فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه.

• قال يزيد المهلبيّ: قال لي المتوكل: يا مهلبيّ، إن الخلفاء كان تتصعّب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبّوني ويطيعوني.

• قال عبد الأعلى بن حماد النرسي: دخلت على المتوكل، فقال: يا أبا يحيى، ما أبطأك عنا! منذ ثلاثٍ لم نرك، كنّا هممنا لك بشيءٍ، فصرفناه إلى غيرك،

فقلت: يا أمير المؤمنين جزاك الله عن هذه الهمة خيراً، ألا أُنشدك بهذا المعنى بيتين؟ قال: بلى، فأنشدته:

لأشكرّنّك معروفاً هممت به
إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إذ لم يُمْضِهِ قَدَرٌ
فالرزق بالقدر المحتوم مصروف

فأمر لي بألف دينارٍ.

• قال الفتح بن خاقان: دخلت يوماً على المتوكل، فرأيته مُطْرِقاً مُتفكّراً، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا التفكّر؟ فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشاً، ولا أنعم منك بالاً، فقال: يا فتح أطيب عيشاً مني رجل له دار واسعة، وزوجة صالحة، ومعيشة حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه، ولا يحتاج إلينا فنزدريه.

• روى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ـ ليلة مات المتوكل ـ كأن رجلاً يصعد به إلى السماء، وقائلاً يقول:

مَلِك يُقاد إلى مليكٍ عادلٍ
متفضّلٍ في العفو ليس بجائر

ثم أصبحنا فجاء نعي المتوكل من سامراء إلى بغداد.

• قال عمرو بن شيبان الجهني: رأيت في الليلة التي قُتل فيها المتوكل في المنام قائلاً يقول:

يا نائم العين في أوطار جثمان
أَفِضْ دموعك يا عمرو بن شيبان
أما ترى الفئة الأرجاس ما فعلوا
بالهاشميّ وبالفتح بن خاقان
وافى إلى الله مظلوماً تضجّ له
أهل السموات من مثنى ووحدان
وسوف يأتيكم من بعده فتن
توقّعوها لها شأن من الشان
فابكوا على جعفرٍ وارثوا خليفتكم
فقد بكاه جميع الإنس والجان

قال: فلما أصبحت أخبرت الناس برؤياي، فجاء نعي المتوكل أنه قد قُتل في تلك الليلة.

قال: ثم رأيته بعد شهرٍ في المنام أيضاً، فقلت: ما فعل بك ربك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بقليلٍ من السنة أحييتها. قلت: فما تصنع ها هنا؟ قال: انتظر ابني محمداً أخاصمه إلى الله الحليم العظيم الكريم.

• روى الخطيب قال: أخبرنا أبو الحسين الأهوازيّ، حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا محمد بن هارون الهاشميّ، حدثنا محمد بن شجاع الأحمر، قال: سمعت المتوكل يحدّث عن يحيى بن أكثم، عن محمد بن عبد المطلب، عن سفيان، عن الأعمش، عن موسى بن عبد الله بن يزيد، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ، قال: (من حُرِمَ الرفق حُرِمَ الخير). ثم أنشأ المتوكل يقول:

الرفقُ يُمْنٌ والأناة سعادة
فاستأنِ في رفقٍ تُلاقِ نجاحا
لا خير في حزمٍ بغير رويةٍ
والشكّ وهن إن أردت سراحا

• أمر النصارى وأهل الكتاب بارتداء لباسٍ مميّزٍ يُميّزهم عن المسلمين.

• عمل على إكرام الإمام أحمد بن حنبل بعد أن ناله ما ناله أيام المحنة زمن المأمون والمعتصم والواثق، فلما ولي المتوكل رفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق: لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، ثم كتب إلى نائبه ببغداد ـ وهو إسحاق بن

إبراهيم ـ أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق الإمام أحمد إليه فأكرمه وعظّمه، لما يعلم من إكرام الخليفة له، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن، فقال له الإمام أحمد: سؤالك هذا تعنّت أم استرشاد؟ فقال: بل سؤال استرشاد، فقال: هو كلام الله منزل غير مخلوق، فسكن إلى قوله في ذلك. ثم جهّزه إلى الخليفة في سامراء، ثم سبقه إليه.

وبلغ إسحاق أن الإمام أحمد اجتاز بابنه محمد بن إسحاق ولم يأته، ولم يُسلّم عليه، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك، وشكاه إلى الخليفة، فقال المتوكل: يُردّ وإن كان قد وطئ بساطي، فرجع الإمام أحمد من الطريق إلى بغداد. وقد كان الإمام كارهاً لمجيئه إليهم، ولكن لم يهن ذلك على كثيرٍ من الناس، وإنما كان رجوعه على قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه. ثم إن رجلاً من المبتدعة، يقال له: ابن البلخي ـ وشى إلى الخليفة شيئاً فقال: إن رجلاً من الخارجين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل، وهو يُبايع له الناس في الباطن. فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد بن حنبل من الليل، فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانبٍ حتى من

فوق الأسطحة فوجدوا الإمام أحمد جالساً في داره مع عياله، فسألوه عما ذُكر عنه، فقال: ليس عندي من هذا علم، وليس من هذا شيء، ولا هذا من نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السرّ والعلانية، وفي عسري ويسري، ومنشطي ومكرهي، وأثرة عليّ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق، في الليل والنهار، في كلامٍ كثيرٍ. ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً.

فلما بلغ المتوكل ذلك، وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بـ«قوصرة» ـ وهو أحد الحجبة ـ بعشرة آلاف درهمٍ من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السلام، ويقول: استنفق هذه، فامتنع من قبولها. فقال: يا أبا عبد الله، إني أخشى من ردّك إياها أن تقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك قبولها، فوضعها عنده، ثم ذهب، فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبني عمه وعياله، وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعةٍ من المحتاجين من أهل الحديث، وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرّقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين،

فلم يبق منها درهماً، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشجّ، وتصدّق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يُعط منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد، وجاء ابن ابنه، فقال: اعطني درهماً، فنظر أحمد إلى ابنه صالح، فتناول صالح قطعةً فأعطاها الصبيّ، فسكت أحمد. وبلغ الخليفة أنه تصدّق بالجائزة كلها حتى كيسها، فقيل للمتوكل: يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك، وتصدّق بها عنك، وماذا يصنع أحمد بالمال؟ إنما يكفيه رغيف. فقال: صدقت.

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب، وتولّى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد، فقال لأحمد في ذلك، فقال: إني شيخ كبير وضعيف، فردّ الجواب على الخليفة بذلك، فأرسل يعزم عليه لتأتيني، وكتب إلى أحمد: إني أحبّ أن آنس بقربك وبالنظر إليك، ويحصل لي بركة دعائك. فسار إليه الإمام أحمد ـ وهو عليل ـ في بنيه وبعض أهله، فلما قارب العسكر تلقّاه وصيف الخادم في موكبٍ عظيمٍ، فسلّم وصيف على الإمام أحمد، فردّ السلام، وقال له وصيف: قد أسكنك الله من عدوّك ابن أبي دؤاد، فلم

يردّ عليه جواباً، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف. فلما وصلوا إلى العسكر بسامراء، أُنزل أحمد في دار إيتاخ، فلما علم بذلك ارتحل منها، وأمر أن يُستأجر له دار غيرها، وكان رؤوس الأمراء في كل يومٍ يحضرون عنده، ويُبلّغونه عن الخليفة السلام، ولا يدخلون عليه حتى يخلعوا ما عليهم من الزينة والسلاح.

وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الأدوات التي تليق بتلك الدار العظيمة، وأراد منه الخليفة أن يُقيم هناك، ليحدّث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين المتطاولة، فاعتذر إليه بأنه عليل، وأسنانه تتحرّك وهو ضعيف. وكان الخليفة يبعث إليه في كل يومٍ مائدةً فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج، مما يقوّم بمائة وعشرين درهماً في كل يومٍ، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلّية، بل كان صائماً يطوى، فمكث ثمانية أيامٍ لم يطعم من طعامهم، ومع ذلك هو مريضٍ، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيامٍ. وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بمالٍ جزيلٍ من الخليفة جائزةً له فامتنع من قبوله، فألحّ عليه الأمير فلم يقبل.

فأخذها الأمير ففرّقها على بني أحمد وأهله، وقال: إنه لا يمكن ردّها على الخليفة، فقال الخليفة: لا بُدّ من ذلك، وما هذا إلا لولدك، فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته، ثم أخذ يلوم أهله وعمه، وقال لهم: إنما بقي لنا أيام قلائل، وكأننا قد نزل بنا الموت، وإما إلى جنّةٍ، وإما إلى نارٍ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء ـ في كلامٍ طويلٍ يعظهم به ـ فاحتجّوا عليه بالحديث الصحيح: (ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائلٍ ولا مستشرفٍ فخذه). وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان، فقال: وما هذا وذاك سواء، ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلمٍ ولا جورٍ، لم أُبالِ.

ولما استمرّ ضعف الإمام أحمد جعل الخليفة المتوكل يبعث إليه «ابن ماسويه» المتطبب لينظر في مرضه، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين! إن أحمد ليس به عِلّة في بدنه، وإنما عِلّته من قلّة الطعام وكثرة الصيام والعبادة، فسكت المتوكل. ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد، فبعث إليه المتوكل يسأله: أن يجتمع بابنه المعتزّ ويدعو له، وليكن في حجره، فتمنّع من ذلك، ثم أجاب إليه رجاءً أن يُعجّل برجوعه إلى

أهله ببغداد. وبعث الخليفة إليه بخلعةٍ سنيةٍ، ومركوب من مراكبه، فامتنع من ركوبه، لأنه عليه «ميثرة»[1] نمور، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه، وجاء إلى مجلس المعتزّ، وقد جلس الخليفة وأمه في ناحيةٍ في ذلك المجلس، من وراء سترٍ رقيقٍ. فلما جاء أحمد قال: السلام عليكم، وجلس ولم يُسلّم عليه بالإمرة، فقالت أم الخليفة: الله الله يا بني في هذا الرجل تردّه إلى أهله، فإن هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيه. وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه: يا أمه قد أنست الدار. وجاء الخادم ومعه خلعة سنيّة مبطّنة، وثوب وقلنسوة وطيلسان، فألبسها أحمد بيده، وأحمد لا يتحرّك بالكليّة. قال الإمام أحمد: ولما جلست إلى المعتزّ، قال مؤدبه: أصلح الله الأمير، هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك، فقال: إن علّمني شيئاً تعلّمته، قال أحمد: فتعجّبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً، فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيذ بالله من مقته وغضبه.

ثم بعد أيامٍ أذن له الخليفة بالانصراف، وهيّأ له

---

(١) الميثرة: القماش الذي يوضع على مؤخرة الدابة تحت السرج وبعده.

حراقة فلم يقبل أن ينحدر فيها، بل ركب في زورقٍ ودخل بغداد متخفياً، وأمر أن تباع تلك الخلعة، وأن يُتصدّق بثمنها على الفقراء والمساكين، وجعل أياماً يتعلّم من اجتماعه بهم ويقول: سلمت منهم طول عمري، ثم ابتليت بهم في آخره، وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً، حتى كاد أن يقتله الجوع. وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس على فرشك، فقال: والله لو نشر المعتصم وكلمني في أحمد ما قبلت منه. وجعلت رسل الخليفة تفد إليه في كل يومٍ تسأله عن أخباره، وكيف حاله. وجعل الخليفة يستفتيه في أموال أحمد بن أبي دؤاد فلا يُجيب بشيءٍ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سامراء إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها. قال عبد الله بن أحمد: وحين رجع أبي من سامراء وجدنا عينيه قد دخلتا في موقيه، وما رجعت إلى مكانها نفسه إلا بعد ستة أشهرٍ، وامتنع أن يدخل بيت قرابته، أو يدخل بيتاً هم فيه، أو ينتفع بشيءٍ مما هم فيه، لأجل قبولهم أموال السلطان.

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبعٍ وثلاثين ومائة، ثم مكث إلى سنة وفاته ـ وهي إحدى

وأربعين ومائتين ـ وكل يومٍ إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه في أمور يُشاوره فيها، ويستشيره في أشياء تقع له. ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينارٍ ليفرّقها على من يرى، فامتنع من قبولها وتفرقتها، وقال: إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره، فردّها. وكتب رجل رقعةً إلى المتوكل يقول: يا أمير المؤمنين إن أحمد يشتم آباءك، ويرميهم بالزندقة. فكتب فيها المتوكل: أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه، وأما أبي المعتصم فإنه رجل حربٍ ولم يكن له بصر بالكلام، وأما أخي الواثق فإنه استحقّ ما قيل فيه. ثم أمر بضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوطٍ، فأخذه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوطٍ. فقال له الخليفة: لِمَ ضربته خمسمائة سوطٍ؟ فقال: مائتين لطاعتك، ومائتين لطاعة الله، ومائةً لكونه قذف هذا الشيخ الرجل الصالح ـ أحمد بن حنبل.

وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشادٍ واستفادةٍ، لا سؤال تعنّتٍ ولا امتحانٍ ولا عنادٍ. فكتب إليه الإمام أحمد رسالةً حسنةً فيها آثار عن الصحابة وأحاديث مرفوعة[1].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

الخاتمة

بعد مقتل المتوكل هان أمر الخلافة إذ غدا القادة يتدخّلون علناً في شؤون الخليفة فهم الذين يميلون إلى أحد أبناء الأسرة فيرفعونه ويُؤيّدونه حتى يصل إلى مركز الخلافة ويبقون في دعمه حتى يستطيع البقاء في منصبه، لذا كان عليه أن يُنفّذ ما يريدون، وهم يتصرّفون كما يشاءون، وإن توانى في تنفيذ ما يرون أو أبدى عدم رضا عن بعض تصرّفاتهم مالوا إلى غيره، وابتعدوا عنه، وتركوا دعمه، ثم وقفوا إلى جانب من مالوا إليه، وأظهروا تأييدهم له، ثم مشوا به إلى مركز الخلافة وسلّموه أمرها، وقبضوا على من كان سيّدهم أمس فأعلنوا خلعه، وألقوا به بعيداً، وربما انتهوا منه.

والقادة الذين امتهنوا القتال، وحصروا اهتمامهم به، وربما أجادوا في فنّ المناورة، وأحسنوا في أساليب المنازلة، فهؤلاء ركزوا تفكيرهم على ذلك، أما البحث في شؤون الأمة، والعمل على رفع مكانتها، وتأمين مصالحها، والشعور بالمسؤولية فقد تركوا أمر

ذلك لغيرهم، وهو من اختصاص الخليفة ومسؤوليته بالدرجة الأولى، على حين يُفكّر القادة القتاليون في مصالحهم الخاصة، ويعملون على الارتقاء، والسيطرة على الآخرين، فكما يعملون على السيطرة على عسكرهم أثناء القتال يريدون أيضاً السيطرة على من حولهم، أو غدا حبّ السيطرة جزءاً من طبعهم، أو جانباً من عملهم، ومهمة من مهماتهم.

وإلى جانب هذا كان المتلوّنون في الخلف يعملون على بثّ الفتنة وإيقاع الخلاف في سبيل إضعاف الأمة في محاولة إماتتها وهذا هدفهم الذي يسعون إليه، فكانوا يُحدّثون القادة فيظهرون فضلهم، ويرفعون من شأنهم، ويتكلمون عن أثرهم في الخلافة، وما يبذلونه للخليفة، وأن غيرهم لا يمكن أن يحلّ محلّهم، وهذا ما يطمعهم ويجعلهم يتحكّمون بالخليفة، وفي الوقت نفسه فإن المتلوّنين يُكلّمون الخليفة عن غرور هؤلاء القادة، وما في تصرّفاتهم من رعونةٍ، وهذا ما يقلّل من هيبة الخلافة ومكانة الخليفة، وهكذا حتى يقع الشقاق ويحدث الخلاف بين القادة وخليفتهم، فإما أن ينجحوا في إثارة أحد أبناء أسرة الخليفة فيرشّحونه للإمامة ويدعمونه ثم يخلعون سابقه ويعلنون خلافته، وإما أن

يتمكن الخليفة من إيقاع الخلاف بين القادة ويُؤيّد طرفاً وينجح فيستقرّ له الوضع، ويبدو صاحب قوةٍ، ورجل حنكةٍ، وأهل خبرةٍ، وتعود له المهابة ولخلافته المكانة.

وفي كلتا الحالتين تحدث النزاعات، وتقع الحزازات في النفوس، وتتجزّأ الأسرة، وتضعف الأمة، ويكثر تبدّل الخلفاء، وتقصر مدة حكم الخليفة، فلا يستطيع إنجاز ما عليه من مهمّاتٍ، ولا يتمكّن من أداء ما عليه من مسؤولياتٍ، وهذه ميزات الخلافة العباسية بعد عهد المتوكل مدة ستٍ وثمانين سنةً (٢٤٨ ـ ٣٣٤هـ) من بداية عهد المنتصر بن المتوكل إلى نهاية حكم المستكفي، وتوالى في هذه المدة اثنا عشر خليفةً، وسيطرت بعدها أسرة بني بويه على شؤون الخلافة فبقي الخلفاء صورةً وبنو بويه هم المتحكّمون في شؤون الدولة، بل نشروا أفكارهم، وساعدوا على قيام إماراتٍ شبه منفصلةٍ تحمل هذه الأفكار وتتبنّاها. حتى استطاع السلاجقة التغلّب على بني بويه، وسيطروا على الخلافة، وقضوا على الأفكار التي عمل على بثّها بنو بويه، وكان قدوم السلاجقة سنة ٤٤٧هـ، واستمروا حتى قضى المغول على الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ.

شعر المتلوّنون أنهم حقّقوا بعض الانتصارات أيام

طغيان بني بويه، غير أن أحلامهم قد ضاعت وشعروا بالإخفاق بتغلّب السلاجقة فأخذوا يتلمّسون كل عدوٍّ للمسلمين ليتعاونوا معه ويدعموه ويُؤيّدوه حتى ظهر المغول وقويت شوكتهم فاتجهوا نحوهم فساعدوهم وكانوا عوناً لهم على دخول بغداد والقضاء على الدولة العباسية الأمر الذي يدلّ على غربتهم عن الأمة الإسلامية التي يدّعون الانتماء إليها، ويُؤكّد ذلك تصرّفاتهم التي كانوا يتصرّفون بها، وحركاتهم التي كانوا يقومون بها، وهذه وتلك أدّى إلى ما آل إليه أمر الخلافة العباسية، وانهيارها أمام المغول.

إن النخر من الداخل والهدم في المجتمع إنما كانا بفعل أولئك المتلوّنين، وظهرا في نهاية المطاف بتعاونهم مع المغول، ومساعدتهم لهم لدخول بغداد وتآمرهم على الخليفة والخلافة والأمة عامةً. فالحذر الحذر من كل دعيٍّ مهما لون الجلد الذي يتخذه.

المُحْتَوى